

البراه

أحكام وآداب



تأليف

عبد الإله بن سليمان الطيار

دار الوطن للنشر

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت: ٢٤٤٦٠٣٣
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم: (٧١)

الزَّوْجَةُ

أحكام وآداب

تأليف
عبد الإله بن سليمان الطيار

مَدَارُ الْوَحْيِ لِلنَّشْرِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ — ٢٠٠٤م

مدار الوطن للنشر - الرياض

هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس : ٤٧٢٣٩٤١ - ص . ب : ٣٣١٠

فرع السويدي : هاتف : ٤٢٦٧١٧٧ - فاكس : ٤٢٦٧٣٧٧

pop@dar-alwatan.com

□ البريد الإلكتروني :

www.madar-alwatan.com

□ موقعنا على الانترنت :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله القائل في كتابه الكريم: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَتَقُورِكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وبعد:

لقد رأيت من المناسب جدًا أن أكتب في موضوع يهم المرأة فوجدت نفسي أمام زخمٍ وكم هائل من المواضيع. فرأيت من الأحسن اختيار الأولى والأهم ولست في الحقيقة بصدد شؤون المرأة أو مسؤولية المرأة أو خيانة المرأة في المجتمع لكي أكتب عن هذا كله، وإن ما حدى بي إلى الكتابة هو أن كثيرًا من الناس ربما يجهل حقيقة المرأة أو لا يعرف للمرأة قدرها ومكانتها.

فمنهم من يظلمها، ومنهم من يهضمها حقها، ومنهم من لا يراها إلا مجرد عالة فينتظر نصيبها فيتخلص منها بأي صورة، لا يكاد يهتم بمصيرها ولا بمستقبلها، ولا يحرص على اختيار الزوج الصالح لها، هذا هو الذي دفعني للكتابة لما أعرفه من واقع بعض الناس ومواقفهم

وتصوراتهم تجاه بناتهم أو أخواتهم، والنظرة الخاطئة أو القاصرة عند اختيار زوجها وشريك حياتها.

ولعل الصفحات القادمة تبيّن وتوضّح أكثر، والله المستعان وعليه التكلان.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

عبد الإله بن سليمان الطيار

مدخل لموضوع الرسالة

في هذا المدخل سوف استعرض الأمور المتعلقة بموضوع هذه الرسالة فأقول مستعيناً بالله :

إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعبدوه، ولما خاطب البشر وكلّفهم بعبادته وطاعته خاطبهم رجالاً ونساءً، ولم يخص جنساً دون جنس بهذا التكليف العام إلا ما ورد فيه الاستثناء صريحاً.

ومن ذلك نفهم المساواة في أصل التكليف بين الرجال والنساء، وكذا المساواة في الجزاء والحساب.

لا يستطيع أحد بوجه من الوجوه المفاضلة بين ما منحه الإسلام للمرأة من تكريم وعلو منزلة وما كانت عليه حياتها في الجاهلية، والقياس مستحيل؛ لأن ما حظيت به المرأة في جاهليتها من تكريم أو إهانة إنما هو عمل بشري كان عرفاً وعادة ليس له ضابط ولا نظام يحكمه، كما أنه اجتهد قابل للتغيير والتبديل مع مرور الزمن واختلاف الأجناس البشرية.

وأما ما منحها الإسلام من الحقوق فإنما هو تشريع إلهي مضمون غير قابل للتغيير أو التبديل أو الزيادة أو النقصان، كما أن من لم يؤمن به أو كذبه ولم يقبله فقد حكم الله عليه بالكفر والفسوق.

وسياتي - إن شاء الله - بسط الحديث في هذا الجانب.

مكانة المرأة في الجاهلية

إن الباحث في المصادر العربية ليعجب كل العجب من اختلاف البيئات والقبائل في نظرتها للمرأة حيث تتراوح صعودًا فتتولى زمام الملك، وهبوطًا فيكون مصيرها الوأد خشية الفاقة والعار.

وأهم مصدر للإسلام هو القرآن فتجد فيه القصص بأروع وأمتع أسلوب وهو يتحدث عن المملكة العربية في اليمن، ملكة سبأ حيث يقول الحق تبارك وتعالى على لسان الهدهد كما في سورة النمل: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢].

كما يحدثنا القرآن كذلك عن الوجه المضاد وهو قتل الفتاة عن طريق الوأد فيقول سبحانه: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

فمكانة المرأة في الجاهلية تأخذ جانبيين:

الأول: الجانب الإيجابي في حياة المرأة.

الثاني: الجانب السلبي في حياتها.

ولعلنا لأهمية هذين الجانبين أن نستعرضهما بشيء من الدقة.

بعض الجوانب الإيجابية في حياة المرأة في الجاهلية

إن المقصود بالجوانب الإيجابية في حياة المرأة العربية هو إبراز ما كانت تتمتع به في ذلك الحين من مكانة سامية تتمثل في حرص بعض العرب واهتمامهم بأسرهم ذلك الاهتمام الذي يبدأ من اختيار المرأة ذات الصفات الحميدة، ومنها حقها في الميراث ومزاولة التجارة وطلب العلم والثقافة واحترام إجرتها، إلى غير ذلك مما نالته بعض النساء في المجتمع الجاهلي من تكريم وإجلال، ولعلي أقسم الحديث في ذلك إلى:

أ- امتيازات .

ب- علاقات .

الامتيازات التي حظيت بها المرأة العربية في جاهليتها

المرأة والزواج:

لقد كان بعض العرب كثيري الاهتمام ببناء الأسرة الاجتماعي إذ لا غرابة أن نجد من بينهم من يبحث عن الزوجة ذات الصفات الحميدة فينصبُّ اختياره على ذات الحسب، والنسب، والنجابة، ومكارم الأخلاق، لما لهذه من تأثير على الذرية في الصفات الفطرية المكتسبة. وليس هذا الاهتمام على نطاق فردي فحسب، وإنما كان رؤساء القوم يوصون أقوامهم بذلك.

فمثلاً نجد أكتثم بن صيفي يوصي قومه باختيار المواطن الكريمة في النسب ويقول: «المناكح الكريمة مدارج الشرف».

وفي تاريخ الطبري: رفض النعمان بن المنذر ملك الحيرة طلب كسرى في مصاهرته، مما يؤكد حرص بعض العرب على صراحة النسب فبلغ مبلغاً عظيماً في نفوسهم، فضنوا بنسائهم عن مصاهرة غير العرب ولو كانوا ملوكاً.

ولقد كان للمرأة العربية في جاهليتها عند بعض القبائل الحرية التامة في اختيار زوجها، ولم يكن لوليها حق في أن يجبرها على زوج لا ترضاه في غالب الأحيان وهاك مثلاً:

ماوية بنت غفزر، فقد خُيرت بين ثلاثة: النابغة الذبياني، وحاتم الطائي، ورجل من النبيت، فاختارت حاتمًا من بينهم.

وتماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الشاعرة، المشهورة بالخنساء تقدم دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بني جشم خاطباً إياها فرفضته، وكان من كلام أبيها لهذا الرجل: «ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها».

ولعل أبرز الأمثلة التاريخية في ذلك زواج خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - وهي ذات المال الوفير بمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب قبل بعثته ﷺ.

المرأة والتجارة:

إن الذي يستقرئ تاريخ المرأة العربية في جاهليتها يجد أمامه أمثلة كثيرة شاهدة على ما تمتعت به تلك المرأة من حرية التصرف المالي من بيع وشراء ومتاجرة في مالها واستئجار الرجال لذلك، مما يُستشف منه معرفة ما تحتله المرأة العربية من مكانة في بعض المجتمعات قد تربو على بعض الرجال، ولعلنا بهذه المناسبة نسوق شاهداً مما سجله لنا التاريخ التجاري للمرأة، خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - حيث كانت من أثرياء المجتمع القرشي وهي من أصحاب القوافل التجارية في رحلتي الشتاء والصيف، ففي الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام، والتي تحدث عنها القرآن الكريم في سورة قريش حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۖ لَّيْلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ فكانت خديجة - رضي الله عنها - تبيع وتشتري وتستأجر الرجال في مالها

وتضاربهم بشيء تدفعه لهم، وقد اختارت ذات يوم رسول الله ﷺ قبل زواجها منه ليكون في إحدى الرحلات التجارية أميناً على تجارتها في الشام برفقة خادمها ميسرة على أن تمنحه ضعف ما تمنح غيره من الرجال، فعاد رسول الله ﷺ بالربح الوفير.

المرأة والثقافة:

لقد حظيت المرأة العربية في جاهليتها بالإسهام في مجال الثقافة العامة السائدة في عصرها، فكان من النساء من تجيد القراءة والكتابة، وكان منهن المعلمات أمثال الشفاء العدوية التي كتبت عنها المصادر العربية، وشهد لها رسول الله ﷺ بذلك حيث عرض عليها رغبته في تعليم حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة، فعن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة فقال لي: «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة»^(١).

وكان فيهن الشاعرات أمثال الخنساء الشاعرة المخضرمة المشهورة وغيرها.

والخنساء هذه التي مرت معنا قبل صفحات هي صاحبة المراثي في أخويها معاوية وصخر، لقبت بالخنساء، وتسمى أحياناً تماضر، عاشت شطر حياتها في الجاهلية وشطرها الآخر في الإسلام، ضربت في كلا

(١) انظر معالم السنن للخطابي - شرح سنن أبي داود - كتاب الطب - باب ما جاء في الرقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٦٤٧).

الشطرين أروع الأمثال في البطولة ورجاحة العقل والثقافة . وذكرها ابن حجر في الإصابة وعدّها من الصحابيَّات^(١) .

ولها تاريخ حافل ، تعتبر أمًا مثالية ، وما قصتها في القادسية عن أذهاننا ببعيدة ، وموقفها مع أبنائها الأربعة عنا بغائبة . وكيفها - والله - تقواها وإيمانها بالله وصبرها واحتسابها ، جاءها نبأ استشهاد أبنائها الأربعة ، وكانت هذه الكلمة تلقى عند المؤمنين ما تلقاه كلمة البشرى والحسرة في القلوب ، لقد قالت حينما بلغها الخبر : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في دار كرامته » .

كلمة موجزة لكنها عظيمة المعنى بعيدة الأثر في القلوب « قلوب المؤمنين » . وهي التي قيل لها : ما أقرح ماقي عينيك ؟

قالت : بُكائي على السادات من مضر .

قيل يا خنساء ، إنهم في النار .

قالت : ذلك أطول لعويلي عليهم .

فهذه العاطفة التي تحولت عندها إلى حزن مقيم وتفكير عميق لا يزال يُجسّم مصيبة الموت فانبعثت أحزانها فتفجرت دموعها ، وفجأة تحول هذه العاطفة المشبوعة العنيفة بالإسلام إلى عقيدة وقوة تضعف أمامها كل مباحج الحياة وآمالها ، وأكبر دليل تقديم أبنائها الأربعة في القادسية .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٨/١١٢) .

العلاقات الأسرية:

الأم:

لقد كان للأم في جاهلية العرب مركزًا مرموقًا ومكانة عظيمة في قلوب الأبناء بلغت حدّ الافتخار بالانتساب إلى الأمهات سواء كان المنتسبون أفرادًا من قبيلة أو جماعات وبطون قد تؤدي في النهاية إلى انتساب بعض القبائل بكاملها إلى الأم الأولى للقبيلة، كما كانت هذه النسبة موجودة في الزعماء، فما يتعلق بانتساب الأفراد إلى أمهاتهم فكثير كشييب بن البرصاء، وخفاف بن ندبة وغيرهما.

أما الجماعات فمن أمثلة ذلك: بطون القبائل ومنها:

بنو جديلة، بنو باهلة، بنو الطفاوة، وهذه البطون تعود إلى قبيلة قيس.

أما ما يتعلق بانتساب بعض الزعماء من ملوك ورؤساء قبائل إلى أمهاتهم فمن ذلك:

- المنذر الثالث ملك الحيرة حيث كان ينتسب إلى أمه «ماء السماء». فيقال: المنذر بن ماء السماء، وماء السماء لقب أمه مارية بنت عوف.

عمرو بن هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار التي اعتنقت النصرانية وأثرت على ابنها عمرو بدعوتها له باعتناق هذا الدين. ومن طبيعة العربي أن لا يرضى المهانة والذل لأمه مهما كانت الأسباب ومهما بلغت بذلك الحيل والمحاولات.

ومن ذلك لما أراد عمرو بن هند إذلال ليلي بنت مهلهل بن ربيعة، عندما نزلت ضيفة عنده مع ولدها عمرو بن كلثوم، صاحت بأعلى صوتها قائلة :

واذلاه، يا لتغلب، فانتفض ابنها عمرو انتفاضة المحموم، وقال :
لا ذل لتغلب بعد اليوم، ثم أخذ سيفًا معلقًا في الخيمة وصرع به رأس عمرو بن هند، وقال معلقته المشهورة ومنها :

أبَا هِنْدَ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا
وَانْظُرْنَا نَخْبِرَكَ الْيَقِينَا
بَأَنَّا نَوْرِدُ الرِّيَاضَاتِ بِيضًا
وَنَصْدُرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا
إِلَى أَنْ قَالَ :

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرُو بْنُ هِنْدَ
نَكُونُ لِقِيلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا
تَهْدِدُنَا وَتَوَعِدُنَا رَوِيدَا
مَتَى كُنَّا لِأَمِّكَ مَقْتَوِينَا
وَالْقِيلُ : الملك من ملوك حمير ، أو من دونه .
وَالْقَطِينَةُ : قعيذة الدار ، والمقتوي الخادم .

لقد كانت الأمهات يغرسن في نفوس أبنائهن حبَّ الرجولة والفضائل الموروثة منذ نعومة الأظفار، حتى سن الشباب والرجولة، فقد روي عن منفوسة بنت زيد الخيل أنها كانت تلاعب طفلها وتقول :

أشبهه أخِي أو أشبههن أباكا
أما أبِي فلن تنال ذاكَا
تقصر عن مناله يداكا

فهي بذلك تثير في نفس وليدها حبَّ الاستطلاع، في أحوال من
ذكرت كي يقتدي بهم في صفات الشجاعة والفروسية.

الأخت:

تمتع الأخت بمكانة عظيمة في نفس أخيها في المجتمع الجاهلي؛
لأنهما يجتمعان في أصل واحد، ويتفرعان منه، فالأخ يغار على أخته
ويحميها، ويقدم لها كل ما يستطيع من مساعدة ونجدة؛ لأنه يشعر بأن
كرامتها كرامة له ومهانتها مهانة له، فراه يقدم لها المال بل ويشاطر فيها
كما في قصة الخنساء السلمية مع أخيها صخر، بل ولا يكتفي بمشاطرتها
ماله مرة واحدة بل مرات ومرات، وتعاتبه زوجته في تصرفه لكنه يمضي
في نجدة أخته ويواسيها بماله، بل ويعطيها خير ماله، وقصتهما في ذلك
معروفة وموثقة في الإصابة وغيرها من كتب التاريخ.

وكان العربي الحر يستشير أخته أحياناً إذا كانت أهلاً للمشورة، بل
ويأخذ بمشورتها مما يدل على منحها الثقة الكاملة، وشاهد ذلك ما
حدث من سفانة ابنة حاتم الطائي تلك المرأة التي تُعدُّ من أجود نساء
العرب وأفصحهن قولاً، كانت سبباً في نجاة قومها من الأسر على أيدي
المسلمين، فكانت هي أسيرة جيوش رسول الله ﷺ خطبت بين يدي
رسول الله ﷺ ومما قالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد

فامن عليّ منّ الله عليك قال : « قد فعلت » ففك أسرها^(١) .

الشاهد أن أخاها عدي بن حاتم كان قد هرب فركبت إليه حتى قدمت على أخيها فقال : ما ترين في هذا الرجل ؟ يعني رسول الله ﷺ ، فقالت رأيت فيه خصالاً تعجبني يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويوفي قدر الكبير ، وما رأيت أجود منه إنني أرى أن نلحق به . وقيل : إن رسول الله ﷺ لما قالت : « إن أبي كان سيد قومه يعين المحتاج ، ويحفظ الجار ، ويحمي الجوار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم المسكين . . . إلى أن قالت : أنا بنت حاتم الطائي . فقال رسول الله ﷺ : « هذه صفات المؤمنين لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق » .

وفي سيرة ابن هشام أنها ذهبت إلى أخيها عدي بن حاتم في الشام بعد فراره من جيش المسلمين فاستشارها فأشارت عليه برأيها قائلة : « إن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تزل في عز اليمن وأنت أنت » فقال لها : والله إن هذا للرأي وقدم على رسول الله ﷺ فأسلم .

فانظر إلى أثر مشورة هذه الأخت المباركة كيف كانت سبباً في دخول أخيها في الإسلام ، وستأتي نماذج أيضاً لبعض الصحابة كعمر مع أخته فاطمة وغيرهما .

الزوجة:

ليس غريباً أن تحظى المرأة العربية عند بعض عرب الجاهلية بمكانة

عالية في قلب زوجها، لأنها سكنه ومهوى فؤاده وأم أولاده، عندها يجد الراحة النفسية والخدمة التي لا تتقاضى عليها أجرًا محدودًا، فأولاها من حبه وتقديره ورعايته ما لا يدخل في حساب الأموال لمكانتها في نفسه واستيلائها على مشاعره.

ولقد عبّر عن هذه المكانة للزوجة في قلب زوجها الشعراء من الإشادة بزوجاتهم في مستهل قصائدهم ومنظوماتهم ومنهم أصحاب المعلقة كزهير وعنترة، ومن العجيب أن العربي لا يجد غضاضة من استشارة زوجته خصوصًا للأمور العظيمة التي بين الناس وفيها حقًا للدماء النازفة أثناء الحروب والمناوشات الحربية كما فعل الحارث بن عوف بقبول مشورة زوجته بهيسة بنت أوس الطائي في أول لقاء بينهما بعد عقد النكاح حيث قالت له: لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك، قال: فكيف يكون؟ قالت: أتفرغ لنكاح النساء، والعرب تتقاتل؟ أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم.

ونفذ الحارث مشورة زوجته واشترك مع هرم بن سنان في الإصلاح بين المتقاتلين من عبس وذبيان، فوقف القتال وحُقت الدماء وشاد بهذا العمل زهير بن أبي سلمى على هذين المصلحين في معلقته المشهورة التي جاء فيها:

تداركتما عبسًا وذبيان بعدما

تفانوا ودقوا بينهما عطر منشم

فانظر إلى هذه المنزلة التي بلغت المرأة في الجاهلية بسبب راحة

عقلها وحسن تدبيرها، فكانت سبباً دافعاً لزوجها الحارث ليشترك مع هرم فيُصلحها بين القوم، ثم يأتي الشعراء فيُشيدون بهذه المواقف النبيلة.

وكذلك قوله: «ودقوا بينهم عطر منشم».

ومنشم امرأة جاهلية هي الأخرى شاد بها الشاعر في معلقته، وأخذت مساحة في شعره، وكانت تاجرة عطور تبعه في مكة وكان من أمرها أن القبائل في مكة إذا قصدوا الحرب غمسوا أيديهم في طيبتها وتحالفوا عليه بأن يستमितوا في تلك الحرب، لقد بلغت هذه المرأة «منشم» من الأهمية درجة جعلت زهير بن أبي سلمى الشاعر المعروف يسجلها في معلقته، فهو يقول مخاطباً هرم بن سنان وعوف بن الحارث اللذين قاما بالصلح بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء.

ومما يُستفاد منه في هذا، قصة المرأة التي أشادت وأشارت بموسى - عليه الصلاة والسلام - فقالت لأبيها: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرُّهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتُ الْقَوِيَّ الْآمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، قال ابن مسعود - رضي الله عنه - أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرُّهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتُ الْقَوِيَّ الْآمِينُ﴾^(١).

وأختم جانب الزوجة بهذه القصة: في صلح الحديدية وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من كتابة الصلح مع قريش، أمر عليه الصلاة والسلام

الصحابة أن ينحروا ثم يحلقوا من أجل أن يتحللوا من عمرتهم، لأنهم قد حصروا ومنعوا من البيت .

يقول الراوي: فوالله ما قام منهم رجلٌ واحدٌ حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقيم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة - رضي الله عنها -: يا رسول الله، أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلق لك . فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنته، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً .

البنت:

لم تكن سمعة العرب في موقفها من البنت طيبة؛ لأن فيها كثيراً من الجفاء والتجني، ولكن بغضهم لبناتهم لا يعتبر قاعدة عامة تسري على المجتمع العربي في الجاهلية، فلم تعد الأوساط العربية الجاهلية من لفظة كريمة ونظرة رحيمة إلى البنت .

والشعر العربي بين أيدينا هو وثيقة مهمة وشاهد في هذه القضية .
معبد بن أوس الشاعر المخضرم له ثلاث بنات، وكان يؤثرهن ويعتز بهن؛ لأن في البنات وفاء لآبائهن، يمرضنهم إذا مرضوا، ويعدنهم إذا سقموا، وقد عبّر الشاعر عن هذه المعاني بهذه الأبيات فهو يقول:

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم

وفيهن لا تكذب نساء صوالح

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى

عوائد لا يملنّه ونوائح

لقد رافق بعض بنات العرب التكريم، والعطف منذ الصغر. واستمر هذا التكريم والعطف الأبوي طول حياة البنت في صباها وشبابها ويوم زفافها، وكانت بين أبيها وأمها تنعم بالعيش الرغيد وبالجاه والتربية العالية إذ كانت البنت تستدر عاطفة أبيها، وحنانه، وشفقته عليها، ورحمته بها فيذكر أن رغبته في الحياة إنما هي فقط من أجل ابنته خوفاً عليها من ذل اليتيم والفقر.

وهذا تصوير الشاعر إسحاق بن خلف لعاطفته نحو ابنته حيث يقول:

لولا أميمة لم أجزع من العدم

ولم أقاس الدجى في حنّس الظلم

وزادني رغبة في العيش معرفتي

ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

أحاذر الفقر يوماً أن يلّم بها

فيهتك الستر عن لحم على وضم

ويلاحق عطف الأبوة والحنان البنت يوم زفافها، ويتجلى ذلك العطف

في قول عامر بن الظرب لصعصعة بن معاوية لما خطب ابنته عميرة:

يا صعصعة، إنك أتيتني تشتري مني كبدي وأرحم ولدي عندي،

والحبيب كفء الحبيب، والزوج الصالح أبٌ بعد أب.

وفي قول عتبة لابن أخيه عثمان بن عنبسة وقد خطب إليه ابنته:

مرحبًا بابن لم ألدّه، أقرب قريب خطب إليّ أحب حبيب، قد زوجتكها وهي ألوط بقلبي فأكرمها، يعذب على لساني ذكرك، ولا تهنها فيصغر عندي قدرك.

إن الأب في موقفه من وصيته لزوج ابنته إنما يعبر عن ثقل الأمانة التي شارك الزوج في تحملها، بل إن الزوج قد يتحمل النصيب الأكبر من أمانة البنت التي أصبحت له زوجة وأمًا لأولاده.

إن مضمون هذه الوصية يشعر بأن الأب لا يزال يشعر بمسؤوليته تجاه ابنته حتى تموت، خوفًا من أن تصاب بذلة أو هوان، وقد صوّر الشاعر إسحاق بن خلف هذا المعنى بقوله:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقًا

والموت أكرم نزال على الحرم

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ

وكنت أبقي عليها من أذى الكلم

إذا تذكرت بنتي حين تندبني

فاضت لرحمة بنتي عبرتي يوم

هكذا كان مقام البنت في بعض المجتمعات الجاهلية، وهكذا

كانت مكانتها ينظر إليها والدها نظرة عطف واحترام وتقدير. فأين الكثير اليوم عن هذه الأخلاق والبطولات تجاه الأسيرات. أسيرات الهموم والغموم بسبب الأسر المفروض من بعض الرجال، هذان الله وإياهم للحق والعمل به.

الجوانب السلبية في حياة المرأة في الجاهلية

توطئة:

الإسلام أعظم الأديان التي عرفت البشرية على مر العصور والدهور، ويظهر ذلك جلياً عندما نقارن بينه وبين الأديان الأخرى فضلاً عن الجاهلية الأولى.

ولئن كان من الأمور المهمة في حياة البشرية تلك المرأة التي هي نصف المجتمع - كما يقال - نجد أن المجتمعات الجاهلية لم توفها حقها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أهينت المرأة وابتذلت بل وسلبت حقوقها.

وقبل البدء بهذا الفصل أحببت توضيح صور من ابتذال المرأة عند المجتمعات والحضارات الأخرى، حتى يتبين للقارئ والقارئة ما تتمتع به المرأة في ظل الإسلام بل الإنسانية، ولتحمد المرأة ربّها على نعمة الإسلام والعزة والرفعة التي منحها لها خالقها جل وعلا.

حيث إنها كانت قبل الإسلام مهانة مبتذلة لا قدر لها ولا قيمة، فانتشلها الإسلام من أحوال الجاهلية، وأعلى قدرها، وجعل لها دوراً فعّالاً، فالنعمة التي هي فيها لا يعدلها نعمة.

١ - مكانة المرأة عند الإغريقين:

محتقرة مهانة كسقط المتاع تباع وتشتري في الأسواق، مسلوبة الحقوق، محرومة من حق الميراث، ومحرومة من حق التصرف في المال.

٢ - عند الرومان:

لاقت تحت شعار «ليس للمرأة روح» أشد أنواع العذاب، وكانوا يصبون الزيت الحار على بدنهما ويربطونها بالأعمدة وبذيول الخيل لتسحبها حتى الموت.

٣ - عند الصينيين:

فهى كالمياه المؤلمة التي تغسل السعادة والمال، للصيني الحق في أن يبيع زوجته كالجارية، ولأهلها الحق إذا مات زوجها وراثتها كثررة، ويدفونهن أحياء.

٤ - عند الهنود:

اشتهر عندهم أنه لا حياة لها بعد موت زوجها لذلك يحرقونها وهي حية، وتقدم أحياناً قرباناً للآلهة.

٥ - عند الفرس:

يبيعون - عياداً بالله - نكاح الأمهات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، وكانوا يبعدونهن خارج المدينة في فترة الطمث، ولا يجوز لأحد مخالطتها، وفضلاً عن هذا كله فقد كانت المرأة الفارسية تحت سلطة الرجل المطلقة يحق له أن يحكم عليها بالموت أو ينعم عليها بالحياة.

٦ - عند اليهود:

تعتبر البنت في مرتبة الخادم، ولأبيها الحق في بيعها قاصرة، واليهود يعتبرون المرأة لعنة؛ لأنها أغوت آدم، ولا يجالسونها ولا

يؤاكلونها، ولا تلمس وعاء حتى لا يتنجس إذا هي حاضت .

٧ - عند النصارى:

يقول أحد القديسين عندهم: المرأة شر لا بد منه، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت؛ ومحبوبة فتاكة، ومصيبة مطلية مموهة .

حتى وصل الحد بالفرنسيين في مؤتمر للبحث هل تعد المرأة إنساناً أم غير إنسان؟ لها روح أم ليس لها روح؟ وهل روحها روح حيوانية أم إنسانية؟ وهل روحها بمستوى روح الرجل؟ وأخيراً «والحمد لله» قرروا أنها إنسان! لكن توصلوا إلى أنها خلقت لخدمة الرجل فحسب! سبحانه هذا بهتانٌ عظيمٌ .

٨ - عند العرب في الجاهلية:

مهانة مهينة، يقول عمر الفاروق - رضي الله عنه -: والله إن كنا في الجاهلية ما نعد النساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم .

فلم يكن أخي القارئ للمرأة في الجاهلية حق الإرث، وكانوا يقولون في ذلك: «لا يرثنا إلا من حمل السيف ويحمي البيضة» .
فانظر يا رعاك الله إلى هذه المجتمعات والحضارات المزعومة كيف وصلت بالمرأة إلى هذا الحد من الإذلال والمهانة؟!
فالحمد لله، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له .

السلبية في حياة المرأة في الجاهلية^(١)

بعد أن رأينا الإيجابية في حياة المرأة العربية نتطرق لبيان الجوانب السلبية، وذلك من خلال :

أ- كراهية بعض العرب للبنات:

كانت بعض القبائل العربية مثل: ربيعة، وكندة، وتميم، وغيرهم يفضلون الذكور على الإناث، وتصل هذه المفاضلة إلى درجة كراهية البنات.

لقد صورَ لنا القرآن الكريم هذه الكراهية أبلغ تصوير حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النمل: ٥٨].

فيصير نهاره مغتمًا مسود الوجه بين الكآبة والحياء من الناس مملوءًا خنقًا على المرأة يستخفي من الناس من أجل ما بُشِّرَ به، فهل يمسكه على هون وذل أم يثده ويدفنه في التراب ﴿أَلَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

وبعض العرب يترك منزله عندما تلد زوجته بنتًا لما يشعر به من هبوط نفسي بسبب هذا الحدث المكروه بالنسبة له.

ولهذا شاهد من أبي حمزة الضبي، فعندما ولدت زوجته بنتًا ترك خيمته وفيها أهله وانتقل إلى خيمة جيرانه وبات عندهم عدة أيام غضبان أسفًا على زوجته التي ولدت بنتًا.

فما كان من زوجته وقد تأثرت نفسيًا إلا أن أنشدت هذه الأبيات

(١) المرأة المسلمة المعاصرة، د/ أحمد أباطين.

قائلةً .

ما لأبي حمزة لا يأتينا
 يظل في البيت الذي يلينا
 غضبان أن لا نلـد البنينا
 نالله ما ذاك في أيدينا
 وإنما نأخذ ما يعطينا
 ونحن كالأرض لـزارعينا
 نبت ما قد زرعوه فينا

فما أن سمع الرجل ذلك حتى تاب إلى رشده وولج الخباء فقبل رأس زوجته وقبل ابنته وقال : ظلمتكما ورب الكعبة .

ب - الوأد:

هناك دوافع كبيرة وكثيرة لوأد البنت عند الجاهليين وربما يقع نتيجة الكره في النفس لحد لا يمكن معه الصبر على رؤية هذه الأنثى حية تسعى ، وسببه إما الفقر أو العار أو الوقوع في السبي أو لمرض مستعص أو وجود عاهة وغير ذلك .

ووأد البنت بسبب الفقر مما جاء النهي عنه في الكتاب العزيز ، فشنع بزرع الطمأنينة في قلوب الآباء حول ما يتعلق برزقهم ورزق الأبناء ، قال عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ ﴾ [الإسراء : ٣١] .

وعند البخاري في صحيحه من حديث أسماء بنت أبي بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى مكة يقول : يا معشر

قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري. وكان يحيي المؤودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها فإذا ترعرت، قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها^(١).

وأما ما يقع من الوأد بسبب الخوف من العار فذلك خشية وقوع البنت في الأسر مما يجبر ذلك لقييلتها العار والفضيحة والإذلال والإهانة، فيلجأ الجاهلي للوقوع في العذاب النفسي بقتلها مرة واحدة، ولا يتعرض للعذاب النفسي الدائم من جرّاء خوفه على ابنته طيلة حياتها.

ح- الحرمان من الميراث والعضل:

ترسخ في ذهن العربي الجاهلي وشاع أن النساء عموماً والصغار من الذكور خصوصاً لا يرثون؛ لأن الإرث في مصطلحهم محصور على ما نقلنا عنهم سابقاً: «لا يرثنا إلا من حمل السيف ويحمي البيضة» أي أن الوارث هو من طاعن بالرمح، وذاد عن الحوزة، وحاز الغنيمة.

ويؤكد ويؤيد ذلك ما نُقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث يقول: «والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم».

وقال قتادة: «كانوا لا يرثون النساء» وعن ذلك غالب أهل الجاهلية، وقد استدلل الإمام ابن جرير الطبري بقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ

فَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ ﴿[النساء: ٧]﴾، على حرمان النساء من الميراث في الجاهلية، فكانوا يورثون الذكور دون الإناث، ولم يكتف بعض العرب في الجاهلية بحرمان المرأة من الميراث فحسب، بل جعلوها أشبه بالمتاع يتوارثونها كما يتوارثون المتاع، فإذا مات الزوج فإن زوجته تصبح تحت سلطة ابنه من زوجة أخرى وهو أحق بها من نفسها، أو أحد أقاربها، إن شاء نكحها وإن شاء عضلها فمنعها من غيره ولم يزوجها حتى تموت أو تفتدي منه. وقد جاء في كتاب الله ما يدل على وقوع هذا الفعل القبيح في الجاهلية وتحريم إيقاعه في الإسلام سواء كان العمل نكاح حلائل الآباء أو عضلهم عن نكاح الغير، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءِ اتِّتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾.

د- ومن السلبيات غير ما ذكر والتي مرت بها بعض نساء الجاهلية:

الفوضى الجنسية المتمثلة في تعدد أنواع النكاح، مما يصور بوضوح امتهان المرأة في عرضها واعتبارها ملهاة جسدية وأداة لإشباع الغرائز الجنسية مما يسبب هدم العلاقات الأسرية، وبذلك تكون الحياة البشرية أشبه بحياة الحيوان بل أضل سبيلاً.

وكان النكاح في الجاهلية باختلاف أنواعه قد اشتهر منه سبعة أنواع، ولعلي أقصر على واحدٍ من تلك الأنواع وهو: نكاح الشغار، وكان من نكاح الجاهلية، وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق، وقد حرمه الإسلام لما فيه من ظلم للمرأة

وهضم لإنسانيتها وحقها في حرية الاختيار والصدق، وقد جاء في تحريمه أحاديث صحيحة منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الشغار، زاد ابن نمير: والشغار أن يقول الرجل للرجل: زوجني ابنتك وأزوجك ابنتي، أو زوجني أختك وأزوجك أختي.

وفي حديث ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: «لا شغار في الإسلام»^(١).

* * *

مكانة المرأة في الإسلام

حقوق وواجبات

لقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى، وأن عليه النشأة الأخرى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

لقد جاءت شريعة الله حاثّة على كل خير، مستجيبة لنداء الفطرة، معالجة لنوازع البشر ورغباتهم «حبب إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة» إن ما شرعه الله ومنحه من حقوق للمرأة إنما هو تشريع إلهي مضمون غير قابل للتغيير أو التبديل أو الزيادة أو النقصان.

ولا عجب إذ يكون للمرأة هذا الاهتمام، فهي تمثل نصف المجتمع أو تزيد، فهي الأم والبنت والزوج والأخت، فالمرأة قمة شماء وصخرة صماء، إذا صلحت واستقامت تحطمت على أسوارها المنيعة مكائد الكائدين، وهي بالمقابل إذا استغلت وخلص إليها المغرضون؛ نافذة واسعة وبوابة مشرعة للفساد.

أمر الله لهن بحسن العشرة في محكم التنزيل فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وأوصى بهن رسول الله ﷺ فقال: «استوصوا بالنساء خيراً».

ولعلي أتناول مكانة المرأة في ديننا على النحو التالي:

أولاً: الحقوق:

بداية أذكر بعض المتطلبات بين يدي هذا المبحث الهام فأقول :
إن الإسلام جاء ورفع المظالم عن المرأة وأعاد لها اعتبارها في الإنسانية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ [الحجرات: ٣١].

فذكر سبحانه أنها شريكة الرجل في مبدأ الإنسانية كما هي شريكة الرجل في الثواب والعقاب على العمل .
قال في الثواب: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال في العقاب: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].
وقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨].

وقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].
كانت المرأة ممقوتة مكروهة، فمنهم من كان يدهنها وهي حية حتى تموت تحت التراب . ومنهم من يتركها تبقى في حياة الذل والمهانة كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]. وقال: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ومع هذا كله وما تلقاه من ذل فلم يكن لها حظ من ميراث قريبها مهما كثرت أمواله

ومهما عانت من الفقر والحاجة، بل جُعلت كالمال تورث عن زوجها الميت.

فجاء النور فأنازل للمرأة وغيرها الدروب، وأوضح الحقوق، فعاشت المرأة عزيزة مصونة، فأعطاها الإسلام من الحقوق ما لم يعطها غيره، فهي وصية رسول الله في خطبته الجامعة في حجة الوداع «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع»^(١).

فنهى عن ضربها الضرب المبرح الذي يؤدي إلى ظلمها وهضمها «لا تضربوا إماء الله»^(٢) إلى آخر ما في السنة من أمثلة كقوله ﷺ: «ولقد أطاف بآل محمد نساء يشكون أزواجهنَّ ليس أولئك بخياركم»^(٣). وعند الترمذي^(٤): «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقًا».

حق المرأة في العلم والتعلم:

الإسلام يدعو إلى العلم والمعرفة وأول ما نزل ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿العلق: ١، ٢﴾.

فدلَّ ذلك على كمال كرم الله بعباده بأن علمهم ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، وفي نفس الأمر نبَّه على فضل

(١) البخاري (٣٣٣١)، مسلم (١٤٦٨).

(٢) الإمام جمع أمة، والمراد بإماء الله: النساء، رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٣) أبو داود (١٨٣٤)، ابن ماجه (١٩٨٥).

(٤) الترمذي (١١٦٢).

علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة، وما دوت العلوم ولا قيدت الحكم، ولا ضببت أخبار الأولين، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليلٌ إلا أمر القلم والخط لكفى به.

والمرأة مخاطبةٌ كما الرجل مخاطب: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة». بل مما يؤكد هذه المساواة العلمية بين الرجل والمرأة في الإسلام أن ديننا حثَّ الرجل على تعليمها حتى لو كانت أمة ومطالبتها بتخصيص وقت تتعلم فيه ومشاركتها الفعلية في التعلم، بل ومنافستها فيه، فعن أبي بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَذْبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ»^(١).

وفي عصر النبوة تقدمت النساء بطلبٍ إلى الرسول ﷺ لتخصيص وقت يتعلمن فيه على يد سيد الرسل والمعلم المعصوم رسول الله ﷺ فوافق على ذلك، فأتاهن فعلمهن ووعظهن.

فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قالت النساء للنبي ﷺ: يا رسول الله، غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن»^(٢).

وبهذا احتلت المرأة المسلمة مكانة علمية عالية في العقيدة، والفقه

(١) البخاري (٥٠٨٣).

(٢) البخاري (١٠١).

والفرائض والحديث وقراءة القرآن والفتوى، وقامت برسالتها العلمية خير قيام.

وقد برزت عدة نساء في هذه العلوم وغيرها ومن أشهرهن . أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها تلميذة زوجها ﷺ . روت عن الصحابة ورووا عنها كعمر وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وغيرهم كثير، رجالاً ونساءً روت عنهم ورووا عنها .

وممن اشتهر من النساء في زمن الرعيل الأول ممن تبوأ مكانة علمية : أم المؤمنين حفصة بنت عمر، روت عن النبي ﷺ وعن أبيها عمر، وروى عنها الرجال والنساء، وقد نالت - رضي الله عنها وعن أبيها - شرف حفظ النسخة الأولى للقرآن الكريم، وعندما أراد الخليفة الثالث عثمان بن عفان جمع القرآن ونسخه في المرة الثالثة استعان على ذلك بتلك النسخة ثم أعادها .

ثم زينب بنت معاوية روت عن النبي ﷺ وعن زوجها عبد الله بن مسعود هذه أمثلة تبين قدر المرأة المسلمة ومجالها الواسع الرحب في العلم والتعليم والرواية، فهذا يدعونا إلى أن نقول: إنه يجب على نساء المؤمنين الاستيقاظ من النوم والتحرر من الوهم، لا بد من الخلاص من عقدة الشعور بالنقص، لا بد أن يمتلئ قلب المرأة المسلمة ثقةً و يقيناً بأنها قادرة على تقديم الخير في مجتمعها الصغير والكبير، وأن بإمكانها أن تدفع الشر عن نفسها وعن بنات جنسها .

على نساء المؤمنين أن يعتنين بأوقاتهن، وأن يوظفنها ويستثمرنها

بالقراءة والطلب، ويكفي أن نقول لها مذكرين ومنبهين كما قال ﷺ:
«والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها»^(١).

حق المرأة في الميراث:

لقد أعطى الإسلام للمرأة حق الإرث بنتاً وأختاً وأمّاً وزوجة، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]. وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

وبياناً لحقها أكثر، رفع الإسلام عن الزوجات قيداً كان أشبه ما يكون بالرق وهو اعتبار زوجة الأب جزءاً لا يتجزأ من أملاك الزوج المتوفى، فرفع الإسلام هذا القيد عن الزوجة وجعلها أحق بنفسها من غيرها حيث قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ اتِّبَتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩].

قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاؤوا زوجها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية^(٢).

وأخيراً نستطيع القول بأن الإسلام قد أعطى للمرأة بصفة عامة حقوقها كاملة، وعلى وجه الخصوص مكانتها الأسرية، وذلك على

(١) البخاري (٢٧٥١).

(٢) البخاري (٤٥٧٩).

نطاق واسع لا يمكن أن يقاس أبدًا بما تقدمه القوانين الوضعية والنظم الأرضية في سائر الأديان والملل وعلى مر الأحقاب والدهور، وكتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ يحملان الشواهد والقواعد والأسس التي نظمت هذه الحقوق، وضمنت للمرأة بعامه والمرأة في الأسرة بخاصة علو المنزلة والاحترام.

فإن كانت أمًّا فقد رفع الله قدرها وأعلى منزلتها، فقرن حقها ويشاركها الأب بحقه، فأوصى بالإحسان إليها وصية عامة تشمل كل أنواع الإحسان وأنواعه التي لا تقع تحت حصر، والتي تتضمن كل ما يمكن إدخاله ضمن هذا المصطلح العام.

بل لقد بلغ هذا الجانب مبلغًا عظيمًا وحقًا ثابتًا حتى ولو كانت مشركة وجب برها والإحسان إليها ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نُرِّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ٣١].

قالت أسماء: أتتني أُمِّي رَاغِبَةً فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَصْلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»^(١).

قال ابن عيينة: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِيهَا: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [المتحنة: ٨].

وإن كانت أختًا فهي الأخرى تتمتع بما يوافق روح التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية، ولا أبلغ من إيثار جابر بن عبد الله -

رضي الله عنهما - مصلحة أخواته على مصلحته وسعاده فتزوج ثيباً من أجل العناية بأخواته^(١).

وإن كانت بنتاً فهى الشارع الحكيم عن إهانتها وإذلالها، وحث على مساواتها بالذكر في المعاملة، وبشر من فعل ذلك بالجنة، فرعاية البنات والصبر عليهن ورحمتهن وإيثارهن على النفس كل ذلك حث عليه الإسلام قولاً وعملاً.

دخلت امرأة معها ابنتان على عائشة - رضي الله عنها - فسألت فلم تجد شيئاً غير تمر فدفعتها عائشة إليها، فقسمتها المرأة بين ابنتيها، ولم تأكل منها ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ على عائشة فأخبرته فقال: «من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له ستراً من النار»^(٢).

أما الزوجة وما أدراك ما الزوجة فهناك حقوقها:

- أ- حق اختيار الزوج.
 - ب- حقها في الصداق.
 - ج- حقها في النفقة والسكن.
 - د- حقها في حسن العشرة.
 - هـ- حقها في التصرف المالي.
- وسأتحدث عن كل هذه الحقوق بشيء من الإيجاز على الوجه التالي:

(١) البخاري (٢٤٠٦).

(٢) البخاري (١٤١٨).

حق اختيار الزوج:

الإسلام منح المرأة حقًا لازمًا يتمثل في حريتها في اختيار زوجها لما في ذلك من توفير عوامل الاستقرار والسعادة النفسية بينهما .
قال ﷺ: «الأيمن أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن في نفسها، وأذنها صماتها»^(١).

بل قد ردَّ رسول الله ﷺ نكاح امرأة مكرهة، فعن خنساء بنت خدام الأنصارية أن أباهَا زَوَّجَهَا وَهِيَ ثِيْبٌ فَكَرِهَتْ ذَلِكَ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَرَدَّ نِكَاحَهَا^(٢).

حقها في الصداق:

فرض الإسلام للزوجة صداقًا يدفع لها تتصرف فيه كما تشاء دون تدخل أولياء أمرها، كما حرَّم الإسلام أخذ شيء منه دون رضاها، قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

الصدقات: هي المهور واحداها صدقة، ومعنى نحلة: فريضة.

حقها في النفقة والسكن:

قرَّر الإسلام نفقة الزوجة وسكنها على زوجها في حدود إمكاناته المادية كما قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَلَاءَ مَا أَنهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

(١) مسلم (١٤٢١).

(٢) البخاري (٥١٣٨).

حقها في حسن العشرة:

ومن توجيهات القرآن الكريم: ﴿وَعَايَشُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

لقد أمر الإسلام الزوج بحسن العشرة مع زوجته، وليس هذا فحسب بل إنه يُروّض الزوج ويحثه على تحمل ما يكرهه من الزوجة في أي شأن، وقد قال ﷺ: «لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»^(١).

حقها في التصرف المالي:

ولقد أعطى الإسلام للزوجة حق التملك وحرية التصرف في مالها بالطرق المشروعة، فعندما تبلغ المرأة مبلغ النكاح وهي رشيدة فلها الحق في إبرام العقود المدنية من بيع وشراء وإجارة وشركة ورهن وهبة ووديعة ووصية وتوكيل ووكالة وغير ذلك دون تدخل من زوجها أو اعتراض، ومن توجيهات القرآن فيما يتعلق بحرية التملك قوله سبحانه: ﴿وَابْتُلُوا آلَ نَبِيِّكُمْ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، والآية تشمل اليتامى من الذكور والإناث.

قال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: واعلم أن الله تعالى علّق زوال الحجر على الصغير وجواز دفع المال إليه بشيئين: بالبلوغ والرشد، والبلوغ يكون بأحد أشياء أربعة، اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء، واثنان مختصان بالنساء، أحدهما: السن، والثاني:

الاحتلام، أما السن فإذا استكمل المولود خمس عشرة سنة حكم ببلوغه غلامًا كان أو جارية، وأما الاحتلام فنعني به نزول المني سواء كان بالاحتلام أو بالجماع أو غيرهما، فإذا وجد ذلك بعد استكمال تسع سنين من أيهما كان حكم ببلوغه .

أما ما يختص بالنساء فالحيض والحبل، فإذا حاضت المرأة بعد استكمال تسع سنين يحكم ببلوغها، وكذلك إذا ولدت يحكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر؛ لأنها أقل مدة الحمل .

وأما الرشد: فهو أن يكون مصلحًا في دينه وماله، والصلاح في الدين هو أن يكون مجتنبًا الفواحش والمعاصي التي تسقط العدالة، والصلاح في المال هو ألا يكون مبدّرًا، والتبذير: هو أن ينفق ماله فيما لا يكون فيه محمّدة دنيوية ولا مثوبة أخروية، أو لا يحسن التصرف فيها فيغبن في البيوع .

والسنة بدورها أيضًا بيّنت للناس حرية المرأة في البيع والشراء والإعتاق دخلت بريرة وهي مكاتبة على عائشة فقالت: اشتريني فأعتقيني قالت: نعم. قالت: لا يبيعوني حتى يشترطوا ولائي، فقالت: لا حاجة لي بذلك، فسمع بذلك النبي ﷺ أو بلغه فذكر لعائشة، فذكرت عائشة ما قالت لها، فقال: «اشترىها فأعتقها ودعيهم يشترطون ما شاؤوا» فاشتريتها عائشة فأعتقتها، واشترط أهلها الولاء، فقال النبي ﷺ: «الولاء لمن أعتق، وإن اشترطوا مائة شرط»^(١).

الكتابة والمكاتبة: أن يكاتب الرجل عبده على مالٍ يؤديه إليه منجماً، فإذا أدّاه صار أطرّاً.

والمقصود: أن للزوجة الحرية في أن تهب أيضاً ما تشاء مما تملكه بنفسها، والنبى ﷺ أمر نساء المسلمين أن لا يحتقرن ما يتهاذى بينهن عادة ولو كان المٌهدى ضئيلاً، قال ﷺ: «يا نساء المسلمين، لا تحتقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»^(١).

والفرسن: كالحافر للفرس، وهو طرف خف البعير، واستعير هنا للشاة.

وقال ﷺ: «تصدقن يا معشر النساء، ولو من حليكن»^(٢) فيشعر الحديث أن لهن الحق بالصدقة من مالهن دون مراجعة أزواجهن.

ثانياً: الواجبات:

لقد جعل الله عزّ وجلّ المرأة أهلاً للتكليف وتحمل المسؤوليات، وهذه الأهلية مناط تكريم وإعزاز للمرأة، يرفع مقامها الإنساني وكرامتها ويشعرها بقيمتها الإنسانية، فليست سقط متاع، وليست فاقدة للعقل والروح، بل إنها خلقت في أكمل صورة، وقد أعدت للتكليف، وإن من أهم واجباتها:

الإيمان ومقتضياته: الصلاة والزكاة والصيام والحج.

- تعلم أمور الدين حتى تتمكن من أداء ما يجب عليها من عبادة

(١) البخاري (٢٥٦٦).

(٢) البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠).

ربها، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .
والمرأة محتاجة إلى أن تعرف التوحيد والفقه، وأن تعرف الحلال
والحرام، وأن تقرأ القرآن في صلاتها .

طاعة الزوج وتحريم معصيته:

إن الحياة الزوجية في الإسلام هي حياة الاستقرار والطمأنينة
والهدوء، حياة الرباط الأسري المتماسك القوي، فالأسرة هي العامود
الفكري للمجتمع، وإن من أهداف الزواج تحقيق الإحصان للطرفين،
وإنجاب الأولاد، وتكثير النسل، وإيجاد السكن والمودة والرحمة بين
الزوجين، كل هذا من أسباب الاستقرار واستمرار الحياة الزوجية،
والطاعة إنما هي بالمعروف، وهي من أهم ركائز الحياة الزوجية
المطلوبة من الزوجة لزوجها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قوله تعالى:
﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٤]،
يقتضي وجوب طاعتها لزوجها مطلقاً من خدمةٍ وسفرٍ معه وتمكينٍ له
وغير ذلك كما دلَّت عليه سنة رسول الله ﷺ»^(١).

ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «والقنوت: الطاعة عن إرادة
وتوجه ورغبة ومحبة، لا عن قسرٍ وإرغام وتفلت، ومن ثمَّ قال:
«قانتات» ولم يقل: طائعات؛ لأن مدلول اللفظ الأول نفسي، وهذا هو
الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة،

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته «وبالأولى في حضوره» فلا تبيح من نفسها ما لا يباح إلا له هو بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة، وما لا يباح لا تقرره هي ولا يقرره هو، وإنما يقرره الله سبحانه بما حفظ الله^(١).

ولأهمية هذا الواجب أسوق بعض الأحاديث المهمة فيه :

١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا صلت المرأة خمسها، وحصّنت فرجها، وأطاعت בעلها؛ دخلت من أي أبواب الجنة شاءت»^(٢).

٢ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه»^(٣).

٣ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأت فبات غضباناً عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»^(٤) وفي رواية : «والذي نفسي بيده، ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها».

فهذه الأحاديث تبين عظم حق الزوج على زوجته في كل ما يرومه، خُصّص ذلك بما لا يكون فيه معصية الله، فلو دعا الزوج إلى معصية

(١) في ظلال القرآن (٢/٣٥٧).

(٢) ابن حبان (٤١٦٣).

(٣) البخاري (٥١٩٥).

(٤) البخاري (٣٢٣٧، ٥١٩٣).

فعليةا أن تمتنع ، وهذا الامتناع مما يؤكد استقلال شخصيتها وحريتها الدينية ، ويحفظ قيمتها ومكانتها في نفسها وفي مجتمعها ، وذلك مما وفره الإسلام وضمنه لها .

تربية الأبناء:

من الواجبات على المرأة الأم تربية أبنائها التربية الإيمانية وبجانبتها الجسمانية ، فمما لا شك فيه أن حبَّ الولد فطرة وغريزة أودعها الله تعالى في الإنسان وفي كثير من المخلوقات الأخرى ، فشعور الوالدين نحو أولادهما بالرحمة والشفقة ودرء المفسدة وجلب المنفعة أمر فطري جبلي ، وهو في الأم أظهر ، فأرحم الخلق بالإنسان أبواه وأرحمهما الأم .

إن رسالة الأم التربوية تأتي في المقام الأول وخاصة في سني الطفل الأولى التي يكون الطفل فيها مرتبطاً بأمه لا ينفك عنها ، وبالتالي يكون تأثيرها عليه أكبر وتعلقه هو بها أكثر .

يقول المربي العظيم والنبي الكريم ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »^(١) .

إن الإسلام عندما يوجّه الوالدين للتربية الفاضلة فإنما يهدف إلى إيجاد مجتمع تسوده شريعة الإسلام ، وقيم حكم الله في الأرض ، ولذلك فالمسؤولية عظيمة ، وكل راع مسؤول عن رعيته .

(١) البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) .

إن عملية التعليم والإعداد والتربية والإرشاد والرعاية والتوجيه عملية شاقة ودقيقة، فالطفل يمرُّ بمراحل مختلفة، وكل مرحلة تحتاج إلى نوع خاص من التعامل التربوي والتوجيه والطفل في التوجيه الموافق للفترة أسلس قيادًا وأسرع انقيادًا.

إذا وفقَّ الله عزَّ وجلَّ الأم في إعدادها لأبنائها الإعداد السوي فإن النتائج الطيبة والمثمرة ستكون على المستوى الرفيع خاصة إذا هيا الله لها الإعداد المسبق من قبل والديها:

الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعبًا طيب الأعراق
ولا شك أن القدوة^(١) لها أثرها وخطرها سلبيًا وإيجابيًا على الطفل في عقيدته ومساره.

وينشأ ناشئ الفتيان منا

على ما كان عوَّده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن
يعوَّده التديين أقربوه

إن العبء الأكبر في الجانب التربوي على الأم؛ لأنها المحضن الرئيس للأجيال لانفرادها بالحمل والوضع والرضاعة، وقيامها

(١) القدوة الحسنة من أهم وسائل التربية:

فقلَّد شكلَ مشيه بنوه
مشى الطاووس يومًا باختيار
سبقت به ونحن مقلدوه
فقالَ علام تخالون؟ قالوا

بالحضانة في الغالب، ولذلك فقد خصت الرسالة السماوية المرأة بمسؤولية مستقلة عن الرجل، فهي راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية^(١) على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته^(٢)».

وحتى يصبح الولد إنساناً سوياً فإن على البيت المسلم التربية المطلوبة، وهذه التربية ذات محورين: تربية إيمانية، وتربية جسمية فلا يفعل واحدة ويترك الأخرى، أو يهتم بواحدة على حساب الثانية، فكلاهما مطلوب، والناس في هذا المضمار يتفاوتون، فعلى الوالدين أن يقيما توازناً بين العاطفة والعقل، وهما يلحظان الولد ينشأ في رعايتهما وتحت ظلهم، وينهل من أخلاقهما ويتربى في محضنهما.

إن اهتمام الأبوين بالجانب التربوي الأخلاقي للولد ينبغي أن يكون أهم وأكبر من الاهتمام بالأمور المعاشية من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن.

والأدب الحسن عماد التربية الحسنة، ونهوض الأمة وأخذها في سلم الحضارة إنما يبدأ من التربية السليمة، فهي أفضل ما ينحله الوالد ولده، فليحذر الآباء والأمهات وكل من له ولاية وسلطة من الغلظة والقسوة وسوء الخلق وخاصة مع الأطفال، وإنه لمن الجفوة بل من

(١) الرعاية: هي الحفاظ والأمانة.

(٢) البخاري (٥٢٠٠).

سوء الخلق أن نحرم أطفالنا المداعبة، ونطردهم كما تطرد البهائم بل البعض - هداانا الله وإياه - يسب أطفاله لمجرد إزعاجهم له، وهذا سلوك أرعن فضلاً عن قبحه، ربما يترك أثراً سيئاً وعميقاً في نفس الطفل، فتراه في قابلات الأيام منحرف المزاج يتسم باللصوصية وسوء الظن، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإن النماذج التربوية في مجال الطفولة والأبوة والأمومة لكثيرة جداً، وما قصة أبي عمير صاحب النغير أخا أنس وقصة ربيب النبي ﷺ عمرو بن أبي سلمة منا ببعيد.

إذن فالآباء والأمهات عليهم مسؤولية التربية والرعاية والحفظ تجاه الأولاد، ولكن قد يكون تخصيص المرأة بالذكر في الحديث له دلالة وأهميته، فالمرأة في بيت زوجها مسؤولة ومؤتمنة وموكلة وربّة مملكة رعيته البنات والبنون، والزوج الرؤوم، والبيت وما حوى، والمال والخدم.

ولقد أحسن وأجاد من قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعباً طيب الأعراق

كيف تقوم الأم بدور التربية الإسلامية؟:

إن دقائق التربية وأسرارها بالمعنى الصحيح لا تتكامل إلا في التربية الإسلامية التي جمعت بين خصائص الروح والجسد، وقدمت للإنسانية نموذجاً ليس له مثيل مهما وضع العلماء من نظريات وجأوا بفلسفات، فإنها لن تصل إلى كمال وجمال التربية الإسلامية الأصيل.

إن الرعاية التربوية للأُمومة تجاه الأولاد لها أدوار عدة :

١ - التربية الجسدية والنفسية للأبناء والبنات.

الكثيرون منا يعلمون أن من حق الولد أن تطعمه إذا طعمت، وتكسوه إذا اكتسيت، وتؤويه من أذى الحر والقر، وهذا صحيح، ولكن هذا الطعام الذي تقدمه له، وهذا اللباس الذي تمنحه إياه، وهذا البيت الذي تؤويه فيه، يجب أن تتذكر أنك مسؤول بين يدي الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة، من أين أطعمته؟ ومن أين ألبسته؟ وفيم أسكنته؟

إنه لغبن شديد وخسارة عليك أية خسارة؛ أن تتعب في جمع المال في هذه الدنيا، ثم تضعه لقمة في فم ولدك، أو تضعه ثوباً على جسده، أو تبني به بيتاً يؤيه، ثم يكون ذلك عاراً عليك في الدنيا، وناراً عليك في دار القرار؛ لأنك كسبت هذا المال من حرام، فكسبت المال من الربا أو من بيع الحرام، أو ما أشبه ذلك من المكاسب المحرمة التي يعلم صاحبها قبل غيره أنها حرام.

فعليك أن تقي نفسك وولدك المكسب الحرام، وأن تتذكر أن النبي ﷺ قال: «إنه لا يربو لحم نبت من سحت، إلا كانت النار أولى به» فلكي تقوم المرأة بدور الأمومة وإرضاع وليدها عليها أن تجنبه المطعم الحرام والملبس الحرام والمشرب الحرام، وهذا ما يُعبر عنه بالحقوق المادية من مطعم وملبس ومشرب ومسكن، ولا يمكن أن تأتي بها إلا من طريق حلال يُرضي الله عزَّ وجلَّ.

٢ - التربية الدينية والخلقية للأبناء والبنات.

فهو حق التربية الدينية، والقيام عليهم في أمر دينهم، يجهله الكثيرون، فيهملون أمر الأولاد، ولا يتابع الأب أبناءه، بل هو مشغول بصفقاته التجارية، أو بالوظيفة، أو المزرعة، ثم إذا كبر الولد ورأى منه إعراضاً وإهمالاً وسوءاً في الألفاظ والعبارات، وقسوة على والده وعدم انصياع لأوامره؛ بدأ يتأفف ويقلب رأسه يمنة ويسرة ويقول: «الله المستعان على أبناء هذا الزمان!

نعيبُ زماننا والعيبُ لنا

وما لزماننا عيبٌ سوانا

وقد نهجُوا الزمان بغير جرم

ولو نطق الزمانُ بنا هجانا

هل وجدتم مزارعاً يترك مرزعه دون سقي أو متابعة، ثم ينتظر أن

تثمر؟!

إن أولادنا بذرة، ولكنها أعظم بذرة في الدنيا، فلا بد أن نتعدهم منذ البداية، والأم دورها كبير في هذا الحق لحاجة الطفل إليها كثيراً خاصة في السنين الأولى من تربيته، فيجب إعدادها واختيارها، فإذا كانت فاسدة، أو جاهلة، أو قاسية سيئة الخلق فكيف يتربى أولادنا في مثل هذا الجو العاصف غير المستقر؟!

إنه لا بُدَّ أن نبدأ تربية الطفل باختيار الزوجة، وأن تكون ذات دين وخلق، ثم لا نغفل التحصين عند أطوار الخلق الأولى بذكر الله عزَّ وجلَّ

عند اللقاء بين الزوجين: «اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيئاً أبداً».

ثم من حسن التربية، اختيار الاسم المناسب للولد، فلا يُسمى باسم يُعيبه ويزعجه إذا كبر. كمن يلتزم باسم أبيه أو جده مع عدم مناسبته لهذا الزمان، وقد غيّر النبي ﷺ الأسماء القبيحة والمستكرة إلى أسماء جميلة حسنة المعنى.

إن تجاوز هذا الأدب بفرض أسماء غير مناسبة على الذرية يُحدث ضرراً أشبه بالعاهة المستديمة.

وهناك من البنات والأبناء من كان اسمه سبباً في أمراض نفسية لحقت به؛ لأن الاسم كلما ذكر التفت إليه الناس، منهم من يتسم، ومنهم من يضحك، ومنهم من يُداري فمه في نفسه عجباً واستغراباً. فعلى الوالدين متابعة هذا الحق، وأن يوليانه جانباً كبيراً في حياتهما، فالأبناء والبنات أمانة عظيمة قلّدها الله في أعناقنا وسيسألنا عنهم.

ثم ليكن قدوتنا رسول الله ﷺ وهو يتابع بالتربية ابنته فاطمة وهي في بيت الزوجية بل وهي وزوجها في فراشهما، والقصة معروفة حين اشتكت فاطمة ما تلقى من الرحي في يدها، وقد أتى النبي ﷺ سبيّ، فانطلقت فلم تجده، ولقيت عائشة، فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة إليها، يقول علي - رضي الله عنه -: «فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال النبي ﷺ: «على مكانكما». فقعد بيننا، فوجدتُ برد قدمه على صدري ثم قال: «ألا

أعلمكما خيرًا مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما، فكبرا الله أربعًا وثلاثين، وتسبحاه ثلاثًا وثلاثين، وتحمداه ثلاثًا وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادم». قال علي - رضي الله عنه - : ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ. قيل له : ولا ليلة صفين قال : ولا ليلة صفين^(١).

فهذه هي التربية التي يجب أن ينشئ عليها الأبناء والبنات ويعرفونها حتى عند المُلَمَّات.

٣- التربية العقلية للأبناء والبنات:

إن الحفاظ على عقليات الأولاد مهمة خطيرة يتحملها الأبوان في ظل الهجمة الإعلامية المسعورة.

وإن من المؤسف له أن نسمع عن إهمال الآباء والأمهات لهذا الجانب المهم، وترك الحرية المطلقة للأولاد بتحديد ما يرون ويعجبهم، لقد كان رسول الله ﷺ يولي جانب العقل اهتمامًا بالغًا، فتراه يُخاطب الصغار بأمور العقيدة والدين، فيخاطب ابن عباس وهو غلام لم يبلغ سن الرشد ويقول له : «يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك . . .» ويوجه عمر بن أبي سلمة وهو غلام في حجره : «يا غلام، سمَّ الله تعالى، وكلُّ بيمينك، وكلُّ مما يليك». إننا حينما نسمع بهذه التربية وبهذه الأخلاق، وفي المقابل نسمع من أناس بأن هذا سابق لأوانه وهؤلاء صغار ونحو هذه التبريرات الواهية التي فقد أصحابها مهارات التربية وفن التعامل.

إنني ومن واجب أمانة الكلمة أُنذر الآباء والأمهات من ترك عقليات أبنائهم بدون حارس وبدون رقيب، وبدون قِيم على ما يتوارد على أذهانهم وعلى عقولهم من سموم فكرية، وآراء زائغة، وشهوات وشبهات.

لقد تفنن الأعداء في غزو الأبناء والبنات عن طريق وسائل الإعلام وقنواته المتعددة وخاصة الفضائيات التي تعرض تلك البرامج المشتملة على المنكرات، فإنه لا يخفى على من عنده أدنى بصيرة وبقية من عقل ودين وفطرة سليمة قبح هذه البرامج وعظم ضررها، لأنها من أظهر المنكرات وأشدّها تأثيراً وإثارةً. وخاصة ما يعرف ببرنامج - ستار أكاديمي - ذلك البرنامج الفاضح الفاسد الذي يجمع الشباب بالشابات بغرض الدراسة وعرض حياتهم اليومية كاملة ومباشرة على مدى أربع وعشرين ساعة وما يضم من أمور منافية للعفة والحياء.

إلى هذا المستوى بلغ الشيطان بهم؟! فإلى الله المشتكى وإليه المفرغ، فعلى الأم دورٌ كبيرٌ في متابعة بناتها وعدم إهمالهن في هذا، فأهل الشر دعوتهم صارخة وقصدهم وهدفهم نشر الرذيلة ثم النتيجة مصائب وبلايا عظيمة، والأب هو الحارس الآخر على قلوب أبنائه من الشهوات، والعقول من شبهات، ودوره يقوم على منع هذه الوسائل التي من خلالها تُعرض مثل هذه البرامج وما شابهه من برامج، فتهيئة هذه الوسائل ومشاهدة هذه البرامج ثم السكوت عليها والرضا بها، لمن الديانة والخنا - عافانا الله وإياكم - لأن الممولين لهذه البرامج ماذا

يريدون؟

يريدون الاختلاط، وإشاعة الفاحشة، وإماتة الحياء، وقتل الغيرة في قلوب المسلمين، ليألفوا مشاهدة هذه المناظر المخزية التي تُهَيِّج الغرائز وتبعد عن الأخلاق والفضائل.

إن هزائم الأمم وانتكاسات الشعوب لا ترجع إلى الضعف في قواها المادية ولا إلى النقص في معداتها الحربية، من يظن هذا الظن ففكره قاصر، ونظره سقيم، إن الأمم لا تعلو - بإذن الله - إلا بضمانات الأخلاق الصلبة في سير الرجال. بل إن رسالات الله ما جاءت إلا بالأخلاق وإتمام الأخلاق بعد توحيد الله وعبادته.

«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، الأخلاق الفاضلة يضعف أمامها العدو وينهار بها أهل الشهوات.

حينما يكون المجتمع صارماً في نظام أخلاقه وضوابط سلوكه، غيوراً على كرامة فردة وأمته، مؤثراً رضا الله على نوازع شهواته، حينئذ يستقيم مساره في طريق الحق والصمود والرفعة والإصلاح.

والأخلاق ليست شيئاً يكتسب بالقراءة والكتابة، ولا بالمواعظ والخطابة، ولكنها درجة بل درجات لا تنال بعد توفيق الله ورحمته إلا بالتربية والتهديب والصراحة والحزم، وقوة الإرادة والعزم.

إن كل امرئ عاقل بل كل شهيم فاضل لا يرضى إلا أن يكون عرضه محل الشناء والتمجيد، ويسعى ثم يسعى ليبقى عرضه حرماً مصوناً لا يرتفع فيه اللامزون، ولا يجوس حماه العابثون.

إن كريم العرض ليبذل الغالي والنفيس للدفاع عن شرفه، وإن ذا المروءة الشهم يقدم ثروته ليسد أفواهًا تتناول عليه بألسنتها أو تناله ببذيء ألفاظها. نعم إن الشهم ليصون عرضه بالمال، فلا بارك الله بـمال لا يصون عرضاً.

من حرم الغيرة حرم طهر الحياة، ومن حرم طهر الحياة فهو أخط من بهيمة الأنعام، ولا يمتدح بالغيرة إلا كرام الرجال وكرائم النساء. إن الحياة الطاهرة تحتاج إلى عزائم الأخيار، وأما عيشة الدعارة فطريقها سهل الانحدار والانهيـار، وبالمكـاره حفت الجنة، وبالشهوات حفت النار.

إن الأسف كل الأسف والأسى كل الأسى فيما جلبته مدينة هذا العصر من ذبح صارخ للأعراض ووأد كـريه للغيرة. تعرض تفاصيل الفحشاء من خلال وسائل نشر كثيرة، بل إنه ليرى الرجل والمرأة يأتیان الفاحشة وبواعثها ومثيراتها، يشاهدان وهما يعانقان الرذيلة غير مستورين عن أعين المشاهدين، لقد انقلب الحال عند كثير من الأقوام بل الأفراد والأسر حتى صار الساقطون المـاجنون يُـمثـلون الأسوة والقـدوة، ويجعلون من فكرهم وسلوكهم وحركاتهم وسام افتخار وعنوان رجولة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ما هذا البلاء؟ كيف يستسيغ ذو الشهامة من الرجال والعفة من النساء لأنفسهم ولأطفالهم ولفتيانهم ولفتياتهم هذا الغناء المدمر من ابتكارات البث المباشر وقنوات الفضاء الواسع أين ذهب الحياء؟ وأين

ضاعت المروءة؟ أين الغيرة من بيوت هيات للناشئة أجواء الفتنة وجرتها إلى مستنقعات التفسخ جرًا، وجلبت لها مُحَرِّضات المنكر تدفعها إلى الإثم دفعًا وتدعّوها إلى الفحشاء دعًا.

إعلانٌ للفحشاء بوقاحة، وإغراق في المجون بتبجح، أغان ساقطة وأفلام آثمة، وسهرات فاضحة، وقصص داعرة، وملابس خالعة، وعبارات مثيرة، وحركات فاجرة ما بين مسموع ومقروء، ومشاهد في صور وأوضاع يندى لها الجبين في كثير من البلاد والأصقاع إلا من رحم الله. على الشواطئ والمنتزهات وفي الأسواق والطرقات، ولا حول ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

التأسيس الاجتماعي للأسرة الاختيار في الزواج

من فطرة الله سبحانه التي فطر الناس عليها أن جعل الزواج سنة الحياة، بل من أساسياتها لبقاء العنصر البشري، وجعل السكن إلى كل من الزوج والزوجة آية من آياته الدالة على وجوده، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقد أعطى الله سبحانه للإنسان حق الاختيار في هذا السكن، وحثَّ عليه، والسنة أيضاً جاءت بذلك، إلا أن في القرآن اختيار وفي السنة أيضاً اختيار.

فأما الاختيار في القرآن الكريم: فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ...﴾ [البقرة: ٢٢١].

فهذه الآية الكريمة اشتملت على بيان الحكم الشرعي وهو تحريم الزواج من المشركات وتزويج المشركين على المسلمين. واشتملت الآية أيضاً على المعايير المرغبة في الزواج، فقد أوضحتها الآية بذكر كلمة واحدة جاءت على صيغة الفعل الماضي ومصدرها الإعجاب، والإعجاب هو ما تتعلق به النفس البشرية فيمن تتوفر فيه عوامل

الإعجاب، وبخاصة إذا كان هذا الإعجاب يؤدي إلى الرغبة في الزواج الذي يعني الرباط الاجتماعي بين شخصين .

وعناصر الإعجاب أو الرغبة الدافعة للزواج متعددة في حياة الناس على اختلاف مشاربهم وشهواتهم، ومن أهم هذه العناصر: المال، والجمال، والنسب، والجاه، والدين .

والآية ركزت على ترجيح صفة الإيمان على غيره، وعُلل هذا الترجيح بأن صنف المشركين يدعو إلى النار، وأن صنف المؤمنين يدعو إلى الجنة والمغفرة .

فائدة: نسب عز وجل الدعوة إلى النار إلى المشركين أنفسهم تقليلاً من شأن ما يدعون إليه، ونسب الدعوة إلى الجنة والمغفرة إلى نفسه الكريمة تكريماً لما يدعو إليه، وتكريماً للمؤمنين .

وأما الاختيار في السنة: فكما تعرض القرآن لمسألة الانتقاء والاختيار في الزواج فقد تعرضت السنة كذلك لهذا الموضوع فنذكر منها ما تيسر:

الزوجة: ورَدَ التصريح بذكر المعايير المطلوب توفرها عند اختيار الزوجة. روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(١).

(١) البخاري (٥٠٩٠).

المال: من أجل أن ينتفع به الزوج، الحسب: أن تكون من قبيلة شريفة من أجل أن =

وورد الأمر في السنة تلميحًا: روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»^(١) والوصف بصالحة يعني: صلاح الدين والتقوى، وهو خير معايير اختيار الزوجة. وورد الأمر بترجيح أحد هذه المعايير على الآخر: «فاظفر بذات الدين تربت يداك» ولا ننسى أيضًا الودود الولود.

الزوج:

إن حسن اختيار الزوج من قبل المرأة لا يقل أهمية عن اختياره هو لها، وعندما أعطى الإسلام للرجل حق اختيار شريكة حياته وأم أولاده، فإنه قد وفر للمرأة مثل هذا الحق في اختيار شريك حياتها، يقول ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد»^(٢)، فبذلك تطمئن الزوجة على وجود المناخ الإسلامي في بيتها وحياتها مع زوجها وأبنائها، والاتزان في طرفي المعادلة، فكلاهما مطلوب فيه الصلاح دينًا وخلقًا لكي يؤسس قاعدة صلبة للأسرة المسلمة، وللمجتمع المسلم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

= يرتفع بها الزوج. الجمال: من أجل أن يتمتع بها الزوج. الدين: من أجل أن تعينه على دينه، وتحفظ أمانته وترعى أولاده. أما قوله «فاظفر»: يعني: تمسك بها واحرص عليها، وحث على ذلك بقوله: «تربت يداك»، وهذه الكلمة تقال عند العرب للحث على الشيء.

(١) مسلم (١٤٦٧).

(٢) الترمذي (١٠٨٥)، وابن ماجه (١٩٦٧).

ما قبل الزواج

إن حديثاً كحديث الزواج لتدعو الحاجة إليه، وفيه مشاركة لهموم قطاع كبير من الشباب والفتيات فضلاً عن الكبار من الرجال والعانسات من النساء، فإذا فكر أحدهم بالزواج فماذا يدور في مخيلته، لماذا يتزوج؟ وبمن يتزوج؟ بل المجتمع مطالب هو الآخر بتساؤل: ما سُبُل تيسيره؟ وما المعوقات والعوائد الاجتماعية التي تُثقل بها كاهل الزوجين فتكون سبباً لتأخيرهم.

فأما لماذا يتزوج؟ فلأن الزواج له أهداف يباركها الإسلام: ترابط الأسرة، وتقوية أواصر المحبة بين الزوجين، وتنمية غريزة الأبوة والأمومة ومزيد الشعور بحق الوالدين من خلال محبة الأطفال ورعايتهم.

ولا شك أن هناك أيضاً آثاراً وفوائد للزواج منها: الولد وهو الأصل، وله وُضِعَ النكاح، والمقصود إبقاء النسل، والولد قُرْبَة من أربعة أوجه هي الأصل في الترغيب فيه:

أ- موافقة محبة الله بالسعي في تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان.

ب- طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير المباهاة.

ج- طلب الحصول على الولد الصالح الذي يدعو له من بعده.

د- طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله.

وفي الزواج تحصن من الشيطان ودفع لغوائل الشهوة وغض البصر وحفظ الفرج.

ثم بمن يتزوج؟

إن الزواج ليس مجرد قضاء للوطر وإشباع للذة، وإنما هو إعفاف للنفس وإحصان لها عن الوقوع فيما حرّم الله، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: «ما أعطي العبد بعد الإيمان بالله خيرًا من امرأة صالحة، وإن منهن غُفًا لا يحذى منه - أي لا يعتاض عنه بعتاء - ومنهن غلًا لا يفدى منه».

فالمرأة الصالحة صاحبة الدين والخلق تحفظه إذا غاب، إن صمتت فحكمة ووقار، وإن نطقت فأدب واستغفار، إذا نظر إليها سرته، وإذا غاب عنها حفظته في ماله وعرضه.

فالواجب على من أراد الزواج أن يبحث عن زوجة تعينه على النسك والطاعة، مؤهلة لتربية الأولاد تصبر على تقلبات الأيام، وما جرت به بقدر الله الأقاليم، اتسمت بالحشمة، وارتدت الفضيلة، وأتزرت بالعفة، فجمال النفس والأخلاق أعظم من جمال الشكل، وما تتنافس فيه الأذواق.

إن أعظم مطلوب، وأعلى مرغوب، في سمات الفتاة الزوجة أن تكون ذات دين، قال ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» ويمكن أن أجلي خلال هذه الأسطر أصناف الناس في الزواج فأقول: صنف يبحث عن ذات مال وفير، وخير كثير.

وصنف يلهث طلبًا للحسب والنسب والجمال فقط.

وصنف علّم سمو المدلول وعمق المفهوم في وصية رسول الله

ﷺ: «فاظفر بذات الدين تربت يداك». فإذا نلتها فهي غنيمة، وهنيئًا لك في الدنيا والآخرة.

النظر إلى المخطوبة:

جاء على وجه الاستحباب تنبيهًا لمريد الزواج وإرشاده إلى فعله، وليُعلم أن هذه الرخصة وهي النظر إلى المرأة هو من أجل الخطبة، ولا يتوقف جواز الرؤية للمخطوبة على علمها، ولا بد للرؤية من حدود لا ينبغي تعديها. وحتى يطمئن الرجل إلى حسن اختياره ويقتنع بما في المرأة من صفات، ويرى حياتهما معًا تكفل لهما السعادة وتحقق الرغبة، وهي خطوة وإن كانت غير ملزمة فهي أساسية في طريق الإلزام، ولهذا ينبغي أن تصدر عن رغبة صادقة واقتناع بصير.

وقد جعل ﷺ النظر إلى المخطوبة وسيلة للتعرف على الصفات الحسية التي يهتم الرجل الاطمئنان إليها، وذلك ضمن مدة زمنية غير طويلة ريثما يتم ذلك.

جاء في شرح صحيح مسلم: «يباح له النظر إلى وجهها وكفيها فقط؛ لأنهما ليسا بعورة، فالوجه يستدل به على الجمال، واليدان على خصوبة البدن». وخطب المغيرة امرأة فقال النبي ﷺ: «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»^(١).

وخطب رجل امرأة من الأنصار فقال له رسول الله ﷺ: «هل نظرت

(١) النسائي (٥٣٢٨)، وقوله: «يؤدم بينكما»: أي يكون بينكما المحبة والاتفاق، يُقال: آدم الله بينهما، يأدم أذمًا، بالسكون، أي: ألف ووفق.

إليها؟ قال: لا. قال: فاذهب فانظر إليها، فإن في أعين الأنصار شيئاً^(١).

وإليك أيها القارئ الكريم هذه القصة أسوقها بهذه المناسبة وهي قصة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وبنت فاطمة الزهراء والتي وُلدت قبل وفاة رسول الله ﷺ.

إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خطبها إلى علي - رضي الله عنه - فقال له: إنها صغيرة. فقال له عمر: زوجنيها يا أبا الحسن^(٢)، فإني أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد. فقال له علي: أنا أبعثها إليك، فإن رغبتها فقد زوجتكها، فبعثها إليه ببرد، وقال لها: قولي له هذا البرد الذي قلت لك، فقالت ذلك لعمر، فقال: قولي له رضيت رضي الله عنك، وكشف عن ساقها فقالت: أتفعل هذا؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك، ثم خرجت حتى جاءت أباها، فأخبرته الخبر، وقالت: بعثني إلى شيخ سوء فقال: يا بنية، إنه زوجك^(٣).

(١) النسائي (٥٣٢٩)، قوله: «فإن في أعين الأنصار شيئاً»، قيل صغر، وقيل: كان فيها زرق، وقيل: عمش.

قال العلماء: وذلك لأن رعاية الجانب الحسي إلى جوار رعاية الجانب الروحي والخلقي فكملة الاختيار الموفق الذي تعمّر به الحياة الزوجية وتؤدي غايتها في سكينه وإطمئنان.

(٢) كان مقصود الفاروق - رضي الله عنه - أن يجمع بين النسب والصهر مع النبي ﷺ، وهو القائل: «كل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبي وسبي وصهري».

(٣) انظر هذه القصة في: سنن سعيد بن منصور، والاستيعاب لابن عبد البر، وأسد الغابة لابن الأثير، والإصابة لابن حجر، والطبقات لابن سعد.

وبوّب الإمام البخاري في صحيحه: «باب النظر إلى المرأة قبل التزويج»: حدثنا مسدد، حدثنا حماد بن زيد، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام يجيء بك الملك في سرقة من حرير فقال لي: هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنت هي فقلت: إن يك هذا من عند الله يمضه».

ونظر ﷺ إلى التي وهبته نفسها، قال سهل بن سعد راوي الحديث: فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر فيها وصوبه. وإذا لم يمكنه النظر استحب له أن يبعث امرأة يثق بها تنظر إليها وتخبره.

إن اختيار زوجة أو زوج ليس بالأمر الهين أو السهل، نعم من وفق واهتدى إلى ذلك - الزوج الصالح أو الزوجة الصالحة - فهذا توفيق من الله ورحمة، لكن نرى ونسمع كثيرًا من مشاكل الطلاق والخلع وغيرهما الكثير وسببه عدم التحرز والبحث عن المناسب كزوج أو كزوجة، أو أن الأمر يكون بتقدير وحساب خاطئين من قبل المرء سواء كان رجلاً أو امرأة أو وليًا.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً أن تعدّ معاييه

الخطأ ممكن لكن بناء الرغبة على أصول غير صحيحة هذا الذي يجب دراسته ومراجعته وإلا سيكون الأمر على خلاف ما نريد.

الاستشارة والاستخارة أمران مطلوبان، فما خاب من استخار، ولا ندم من استشار. ولا بد أن يكون المستشار أمينًا واضحًا صريحًا،

فالمستشار مؤتمن كما هو معلوم، وبيان الحقيقة واجب إذا استُصحح المسلم، والغش لا يجوز بين المسلمين وغيرهم، ومن غشنا فليس منا. إن أمانة الأبناء وخاصة البنات تجعل الأولياء والآباء وغيرهم أمام مسؤولية عظيمة، فلا شغار في الإسلام ولا أطماع ولا أهداف مادية، وعلينا أن نحذر الخطبة على الخطبة أي الخطبة على خطبة أخيك حرصاً على ما توجبه الإنسانية والأخوة بين المسلمين، وقد وجَّه ﷺ المسلمين في هذا الأمر فقال: «ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك»^(١). وفي لفظ للبخاري: «حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب» ولفظ مسلم: «حتى يذر».

ولنا وقفة:

وهي أن النهي هنا خاص فيما تتم فيه الموافقة بين الخاطب والمرأة فحينها نقول: لا يجوز لأحد أن يتقدم ويخطب هذه المرأة المخطوبة كالبيع إذا تم بين المتبايعين، فلا يجوز لأحد أن يفسخ بسعر أكثر. أما إذا لم يتم الاتفاق أو لم يركن كل منهما إلى الآخر فلا بأس بالخطبة حينئذٍ، ولا تكون خطبة على خطبة وإن تعدد الخاطبون، ويغلب في هذه الحال أن لا يعلم كل منهم بخطبة الآخر.

وهذه واقعةٌ تؤكد هذا المفهوم وتصرح به: خرَّج الإمام مسلم - رحمه الله - في صحيحه: أن فاطمة بنت قيس قد خطبها معاوية وأبو جهم وأسامة، فجاءت إلى النبي ﷺ تستشيريه في أمر زواجها، فقال: «أما

معاوية فرجل تَرَبَّ لا مال له ، وأما أبو جهم فرجلٌ ضَرَّابٌ للنساء ، ولكن أسامة بن زيد ، فقالت بيدها هكذا : أسامة أسامة ! فقال لها رسول الله ﷺ : طاعة الله وطاعة رسوله خيرٌ لك » قالت : فتزوجته فاغتبطت .

قال الترمذي : فمعنى هذا الحديث عندنا والله أعلم : أن فاطمة لم تخبره برضاها بواحد منهما ولو أخبرته لم يشر عليها بغير الذي ذكرت .

فعلى ولي المرأة والمسؤول عنها أن يهتم بأمر موليته فيختار لها من بيئة كريمة معروفة باعتدال المزاج وهدوء الأعصاب والبُعد عن الانحرافات الخلقية والنفسية ، وأن يرضى لها صاحب الدين والخلق والأمانة والمعاملة الحسنة ، ومن حقها أن تتأكد أو يُتأكد لها عن استقراره النفسي ، وطيب الأسرة التي هو منها ، وخلوه من الموانع الشرعية لمثلها ، فلا يجب التركيز على الأشكال الظاهرة فحسب أو على نوع وظيفته ، ومركزه الاجتماعي ، قال ﷺ : « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » . وهذا الجانب مهم وخطير في نفس الوقت ، لا بد أن يحسب لهذا الأمر ألف حساب ؛ لأن الزواج عقد من أجل العقود خطراً ، وأبعدها في حياة الإنسان أثراً ، فلا نركز مثلاً على دينه وصلاته وصيامه ونهمل جانب المعاملة والأخلاق اللذين هما سببان كبيران لفشو الطلاق وخراب البيوت وضياع الأولاد .

والتمهيد بالخطبة يتيح للطرفين فترة يترويان فيها ويقلبان الأمر على شتى وجوهه ، ويتعرفان على كثير من النواحي التي يتوقف عليها الزواج

من عدمه، فلا يكن همّ المرأة أن يكون زوجها وسيماً أو طويلاً أو غنياً ونحو ذلك، بل الجمع بين الخلق والدين على حدٍ سواء.

إن بعضاً من الناس - هداًنا الله وإياهم للصواب - يكتفون بالمعرفة العابرة والأخبار المتناثرة، دون سؤال واستفسار، وتثبت عن أحوال الخاطب حتى تظهر الحقيقة وتنكشف الأخلاق الدفينة، وقد ترى أحياناً من هو على طاعة ربه سائراً، وبالسنن والنوافل قائماً، إلا أنه ما زال شرس المعاملة، فظّاً الألفاظ، سيئ الأخلاق، فمن أراد أداء الأمانة، فليبحث لابنته عن صاحب دين وخلق قويم، ثم ليهنأ بسعادة وعيش كريم.

وإني أدعو كل ولي: إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فاجلسوا معه جلسة رحمة ومودة ومصاهرة، لا جلسة صفقة ومتاجرة ومساومة، فلماذا تشدد عليه وهو في مقام ابنك وسيكون زوج ابنتك، وما علاقته بكسوة الأب، ورضوة الأم، وأموال طائلة، وشروط قاسية قد يكون بعضها محرماً ومحظوراً فتتزع البركة وتحل النقمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

احترام رأي المرأة

وفي تكريم المرأة، وإعطائها الحرية في اختيار شريكها جاء قوله ﷺ: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن». قالوا: يا رسول الله! وكيف إذن؟ قال: «أن تسكت».

وهنا مسألة دقيقة جدية بالعناية: فالمرأة التي يُراد تزويجها لا تخلو

من ثلاث حالات :

١- إما أن تكون بالغةً بكرًا .

٢- وإما أن تكون صغيرة بكرًا .

٣- وإما أن تكون ثيبًا .

ولكل واحدة حكم خاص :

١- **فأما البكر الصغيرة**، فلا خلاف أن لأبيها أن يزوجه بدون إذنها؛ لأنه لا إذن لها؛ لأن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - زوّج ابنته عائشة - رضي الله عنها - رسول الله ﷺ وهي بنت ست سنين وأدخلت عليه وهي بنت تسع سنين . [متفق عليه] .

قال الإمام الشوكاني؛ فيه دليل على أنه يجوز للأب أن يزوّج ابنته قبل البلوغ، وفيه دليل على أنه يجوز تزويج الصغيرة بالكبير، وبوّب لذلك البخاري .

وفي زواج النبي ﷺ من عائشة وهي بهذه السن ردُّ على من لا يرون تزويجها وهي صغيرة بحجة جهلها وعدم معرفتها، فكيف بمن ترك الزواج وتؤخره بحجة دراسة أو عمل أو حجة من الحجج الواهية .

٢- **أما البكر البالغة**؛ فلا تزوج إلا بإذنها، وإذنها صُماطاتها؛ لقوله ﷺ: «ولا تنكح البكر حتى تستأذن» فلا بد من إذنها ولو كان المزوَّجُ لها أبوها على الصحيح من قولِي العلماء .

قال ابن القيم؛ وهذا قول جمهور السلف ومذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايات عنه، وهو القول الذي ندين الله به ولا نعتقد

سواه. وهو الموافق لحكم رسول الله ﷺ وأمره ونهيه، وقواعد شريعته ومصالح أمته.

٣ - وأما الثيب: فلا تزوج إلا بإذنها، وإذنها بالكلام بخلاف البكر فإذا الصمات.

قال في المغني^(١): أما الثيب فلا نعلم بين أهل العلم خلافاً في أن إذنها الكلام، للخبر؛ ولأن اللسان هو المعبر عما في القلب وهو المعبر في كل موضع يعتبر فيه الإذن.

وقال شيخ الإسلام في الفتاوى^(٢): المرأة لا ينبغي لأحد أن يزوجه إلا بإذنها كما أمر النبي ﷺ، فإن كرهت ذلك لم تجبر على النكاح، إلا الصغيرة البكر فإن أباه يزوجه ولا إذن لها.

وأما البالغ الثيب فلا يجوز تزويجها بغير إذنها لا للأب ولا لغيره بإجماع المسلمين.

وكذلك البكر البالغ ليس لغير الأب والجد تزويجها بدون إذنها بإجماع المسلمين، فأما الأب والجد فينبغي لهما استئذانها. ويجب على ولي المرأة أن يتقي الله فيمن يزوجه به، وينظر في الزوج هل هو كفء أو غير كفء، فإنه إنما يزوجه لمصلحتها لا لمصلحته.

وقفة مع الفتاة:

في زمن استشراء صور الإغراء والإغواء واستهداف المرأة عموماً

(١) ابن قدامة، المغني: (٦/٤٩٣).

(٢) ابن تيمية، الفتاوى: (٣٢/٣٩).

بالإفساد يلزم البنت ألا تتأخر عن الزواج، فأقول للفتاة المسلمة: الزواج المبكر خير لك وللمجتمع من حولك، لا ينبغي أن تقعد بك مواصلة الدراسة، أو الرغبة في الوظيفة، أو مشورة الصديقة. واحذري وسائل الإعلام الغازية، احذري شبح العنوسة. لا ينبغي الاعتذار عن الزواج حين يتواردُ الخطاب، فأنت الخاسر الأكبر، وستعزين أصابع الندامة حين ينصرف الشباب عنك، وليكن لك في بيت أهلِكَ مراس في أمور البيت قبل أن تتحملي المسؤولية كاملة في بيت الزوج، واحرصي على الأمانة والعفاف، وابتعدي عن السفور ومواطن الريب، واحذري الخروج للشارع والسوق.

وقفة مع الآباء:

إن بعض الآباء تتوق نفسه طمعًا في شاب يراه قد تربى على الصلاح، وأسس على البر والفلاح له سماحة وصباحة، خلقه الله في أحسن تقويم، وجعله على خلق عظيم، يتمنى أنه زوجًا لابنته فنقول: تقدم، واعرض زهرة حياتك دون ما خجل فذلك من تمام برك بابنتك وحسن رعايتك لها، ومن سنة سلفك، فهذا الرجل الصالح شعيب كما تحدث عنه القرآن عرض ابنته على موسى - عليه الصلاة والسلام - بعد أن خَبَرَ أحواله، وسير أخلاقه، وعَلِمَ شهامته، وَقَوْمَ أفعاله: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجِجٌ ﴾ [القصص: ٢٧].

وهذا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عرض ابنته حفصة على عثمان فاعتذر، وعلى أبي بكر فصمت ولم يرد، ثم تزوجها

رسول الله ﷺ .

وقفه مع الأمهات:

إن النصائح والتوجيهات من الآباء والأمهات في مسائل الحياة الزوجية وخاصة ليلة الزواج، من هدى السلف، ليتهاً الفتيان لعالم جديد، وارتباط مديد، شغل الآباء والأمهات في زمننا عن هذا بالزينة والملبوسات، والمنافسة في إقامة الحفلات، فأعدّ الفتيان شكلاً ومظهراً، واستقبلوا الحياة بأمية ظاهرة، لا يحسن بعضهم قراءة أبجدياتها، ركزوا على الوسائل، وأهمّلوا الغايات، اهتموا بقصر الأفراح، وشهر العسل.

لا بد أن تُعدّ الفتاة لتكون زوجةً وأماً وسكناً، تُرضع الأولاد لبناً وخلقاً، وتغذيهم طعاماً وعلماً وأدباً.

إن حياة جديدة لم تألفها الفتاة من قبل لا بد من توجيه بعض النصيح تذكراً لها وحباً في سعادتها مع شريك حياتها، فيا فتاة الإسلام، اقرئي وصية أسماء بنت خارجة - امرأة عوف الشيباني - إلى ابنتها قبل زفافها، تجدي فيها كلمةً جامعةً لأصول المعلومات الزوجية، والآداب التي يجب أن تتحلّى بها كل فتاة مقبلة على الزواج.

تقول أسماء لابنتها:

«أي بنيّة! إن الوصية لو تركت لفضل أدبٍ لتركْتُ ذلك منك، ولكنها تذكرةٌ للغافل، ومعوّنة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى والديها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء

للرجال خُلُقن، ولهن خلق الرجال .

أبي بنية! إنك تفارقين بيتك الذي منه خرجت، وتتركين عشك الذي فيه درجت، إلى رجلٍ لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أرضاً يكن لك سماءً، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكوني له أمةً يكن لك عبداً، واحفظي له خصلاً عشرًا يكن لك ذخراً .

أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسنُ السمع والطاعة .
أما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشمُّ منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة .

وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والادعاء على حشمه وعياله، فملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير .
وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمراً، ولا تُفشين له سرّاً، فإنك إن خالفت أمره، أو غرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره .
ثم إياك والفرح بين يديه إن كان ترحاً، أو الترح بين يديه إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والأخرى من التكدير .

وكوني ما تكونين له إعظاماً، يكن أشدَّ ما يكون لك إكراماً، وأشدَّ ما تكونين له موافقةً يكن أطولَ ما يكون لك مرافقةً .

واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت، والله يخيرُ لك . ١ . هـ .

وبعد هذا، نعرف عددًا من الأمهات يستن إلى بناتهن، وإلى حياتهن المقبلة أشد الإساءة بما يُقدّمن لهن من نصح عقيم، وتوجيه سقيم.

فلتق الله كل أم في بنتها وفي حياتها مع زوجها.

وقال رجل لزوجته:

خذي العفو مني تستدمني مودتي
ولا تنطقي في سورتني حين أغضبُ
ولا تنقريني نقرك الدف مرة
فإنك لا تدريين كيف المغيبُ
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى
ويأبُبك قلبي والقلوب تقلُّبُ
فإنني رأيت الحب في القلب والأذى
إذا اجتمع لم يلبث الحب يذهبُ
همسة في أذن الفتاة:

افهمي حياتك جيدًا، ولا تصدقي نصائح الجهلاء، فالجهل ظلام
فتاك ووحش مفترس، وخذي النصح من أفواه العقلاء، من أهل البصيرة
حتى يمن الله عليك بالسعادة في حياتك المقبلة.
قاسمي زوجك أفراحه وأحزانه، وآماله وأحلامه، واحرصي على
ألا تمتهني كرامته حتى لو كان بينك وبينه، فالرجل يفتخر بينه وبين نفسه
بكرامته، ولا يستطيع أن يعيش بدونها.

تنبهي أختي المسلمة إلى حقيقة تغفل عنها كثيرٌ من الفتيات، وضعيها نُصَبَ عينيك؛ وهي أن تضعي في تقديرِك أن حياتك الاقتصادية في بيتك الجديد تختلف اختلافاً كلياً عن حياة أهلك وأبويك، فلا تقارني حياتك مع زوجك بحياة أسرتك التي عاشت ردحاً من الزمن تكون وتنظم بيتها، واعلمي أن العش يبدأ صغيراً ثم يكبر يوماً بعد يوم حتى يقوم على دعائم قوية وأركان متينة.

همسة في أذن الشاب:

إن حياتك الزوجية من أخطر المراحل التي تمر عليها، إنها حياة كلها كفاح ومسؤولية ورجولة، إنك عما قريب ستصبح مسؤولاً عن أسرة تعيش تحت حمايتك ورعايتك، وتفخر بحبك ورجولتك. فلا تفرط في تلك المسؤولية، فبقدر نجاحك في الحياة الزوجية يكون نجاحك في مستقبلك، قدر مسؤوليتك فليست الحياة الزوجية لهواً أو تسليةً أو متعة، وإنما هي حياةٌ جدٌ وعملٌ من أجل من تعولهم.

ثم اعلم - يا رعاك الله - أن زوجتك وديعةٌ عندك، فاتق الله فيها وعاملها بأسلوب حسن، وخلقٍ طيب، وسلوكٍ مهذب، فإنك بذلك سوف تحظى بحبها وحب أهلها لك. وخذ العظة من حكمة الحكماء، وأفواه الفصحاء، فقد خطب عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان إلى عمه ابنته، فأجلسه بجانبه وأخذ يمسح على رأسه ثم قال: «أقرب قريب، خطب أحب حبيب، لا أستطيع له ردّاً، ولا أجدُ من إسعافه بُدّاً، قد زوجتكما وأنت أعز عليّ منها، وهي ألصق بقلبي منك، فأكرمها يعذبُ

على لساني ذكرك، ولا تهنها فيصغر عندي قدرك، وقد قربتك مع قربك، فلا تبعد قلبي من قلبك .

ولا تغفل وصية الرسول ﷺ حيث إنه أوصى بهنَّ وبيَّن لنا ما يجب أن يكون التعامل معهن : «استوصوا بالنساء خيراً» .

وفي هذا توجيه نبوي كريم، بفعل الخير مع النساء لضعفهن وقصورهن في جمع شؤونهن، فإنهن خلقن من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة ولا تكون لزوجها على ما يريد في كل شيء بمقتضى جبلتها وطبيعتها، بل لابد من مخالفة، ولابد من تقصير، مع القصور الذي فيها .

وإن حاولت أن تستقيم لك على ما تريد فلا يمكن ذلك . ولا يمكن أن تجد امرأة مهما كان الأمر سالمة من العيب، أو مواتية للزوج، ولكن كما أرشد النبي ﷺ استمتع بها على ما فيها من العوج، والضلع الأعوج إن استمتعت به استمتعت به وفيه العوج، وإن ذهبت تقيمه انكسر .

وأيضاً إن كرهت منها خلقاً رزيت منها خلقاً آخر، فقابل هذا بهذا مع الصبر، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩] .

بين التوجيه والتشريع

أولاً: المهر في الزواج:

المهر في الزواج رمز البذل والعطاء من الزوج وحق صريح للمرأة وحق شخصي في صداقها: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤].
والصداق حق للمرأة تأخذه لنفسها ولا يأخذه الولي.

وأوجب الله تعالى على الزوج أن يؤديه «نحلة» أي: هبة خالصة، وأن يؤديه عن طيب نفس، وارتياح خاطر، فالله سبحانه وتعالى يجعل صداق المرأة فريضة لها مقابل الاستمتاع بها ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤].

وبعد تقرير هذا الحق للمرأة وفرضيته، يدع الباب مفتوحاً لما يتراضى عليه الزوجان بينهما وفق مقتضيات حياتهما المشتركة، ووفق مشاعرهما وعواطفهما كلُّ اتجاه الآخر: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ [النساء: ٢٤].

فلا حرج عليها في أن تتنازل عن مهرها - كله أو بعضه - بعد بيانه وتحديدده، وبعد أن أصبح حقاً لها خالصاً تتصرف فيه كما تتصرف في سائر أموالها بحرية، ولا جناح عليه في أن يزيد لها الزوج على المهر، فهذا شأنه الخاص، وهذا شأنهما معاً يتراضيان عليه في حرية وسماحة، فإذا طابت نفس الزوجة لزوجها عن شيء من صداقها كله أو بعضه فهي صاحبة الشأن في هذا، والزوج في حل من أخذ ما طابت نفس الزوجة

عنه، وأكله حلالاً طيباً هنيئاً مريئاً، فالعلاقات بين الزوجين ينبغي أن تقوم على الرضا الكامل، والاختيار المطلق والسماحة النابعة من القلب، والود الذي لا يبقى معه حرج من هنا أو من هناك.

ثانيًا: المهر وقضية اليسر فيه:

إن كل شرائع الإسلام قائمة على اليسر والمساهلة، لا على الحرج والتعقيد، والزواج ما هو إلا إمضاء لسنة أزلية، وإنفاذ لفريضة فرضها الله سبحانه، فإدخال الحرج بالمغالاة في المهر أو نحوه أمر مناف لليسر الذي سنّه الله سبحانه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وعلى هذا الأساس من النظر السهل للأمور دعا الإسلام إلى القصد في المهر، وتيسير إجراءات الزواج، قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة» وقال: «خير الصداق أيسره» وأجمع العلماء على أن المهر لا حدًّا لأكثره، ولكن البركة في يسر المؤنة، وكان عمر - رضي الله عنه - يقول: «لا تغلو صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى في الآخرة لكان أولاكم بها النبي ﷺ».

والصداق أمر اعتباري يختلف باختلاف ما قسم للمرء من رزق، فقد يكون مبلغ ما سهلاً على شخص، وشاقاً على آخر باعتبار ما لكل منهما من طاقة.

وقد تزوج النبي ﷺ زوجته أم حبيبة وهي بأرض الحبشة، فأراد النجاشي أن يقدم مكرمة، فدفعت المهر لها عن النبي ﷺ أربعة آلاف درهم، أو مائتي دينار، ولم ير النبي ﷺ أن ذلك كثير؛ لأنه بالنسبة

للملوك يسير، ولكنه - عليه الصلاة والسلام - حينما جاء شاب فقير يقول له: «إني تزوجت على مائة وستين درهماً، استكثرها وقال له: «كأنكم تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل».

ورضي للفقير المعدم أن يقدم الصداق: «ولو خاتماً من حديد» فلما عاد الرجل يقول: إنه لم يجد خاتماً من حديد، سأله - عليه الصلاة والسلام -: «هل معك من القرآن شيء؟» قال: نعم، سورة كذا، وسورة كذا، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «قد زوجتكها بما معك من القرآن». أي تعلمها ما تحفظ من القرآن.

إنه حين تتألق لنا فكرة الإسلام النبيلة عن الصداق يتبدى لنا في ضوئها سر تيسيره في هذه المشلكة، وكيف ترك تحديده للظروف الموضوعية التي تختلف من زوج إلى آخر، ومن أسرة إلى أخرى، على أن لا يُعتبر التغالي فيه حائلاً دون إتمام زواج تتوافر فيه الكفاءة والثقة والطاقة على تيسير دفة الأسرة من بعد.

ثالثاً: إعلان الزواج وإذاعته:

إن العلاقة السرية تفتح منافذ الظن السيئ، والخوض في الأعراض، والنقول على الناس، ورميهم بالزنا، وذلك أمر يعصف بكيان المجتمع ويُعرض سلامته ووحدته وأمنه للخطر.

إن لكل من القائل والمقول فيه شبهة تدرأ حد القذف عن القائل، وحد الزنا عن المقذوف.

إن شريعة الإسلام أحرص ما تكون على تنمية العلاقات الإنسانية،

وتقوية الروابط بين أبناء المجتمع، ولذا تنهى عن القول في أعراض الناس، ولكنها لا تغفل أن تنهى قبل ذلك عما يتسبب في هذا القول مثل نكاح السر.

أخرج سعيد بن منصور في سننه، وابن أبي شيبة في مصنفه، عن الحسن: أن رجلاً تزوج امرأة سرّاً، فكان يختلف إليها، فرآه جار لها، فقفذه بها، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال له عمر: بيتك على تزويجها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، تزوجت امرأة على شيء دون فأخفيت ذلك. فدرأ عمر الحد عن قاذفه، وقال: «حصنوا فروج هذه النساء، وأعلنوا هذا النكاح» ونهى عن المتعة. وفضلاً عن ذلك فليس في نكاح السرّ ما يعين على سكون النفس، وطمأنينة القلب، ما دام كل من الزوجين سيكون هدفاً لأعين المتطلعين، وألسن المتقولين، وسهام القاذفين، وما شرع الزواج إلا ليسكن كل من الزوجين إلى صاحبه، ومن هنا جاء الأمر بإعلانه.

وإعلان النكاح وإشهاره يكون بين ذوي القربى والمعارف، وفي الإعلان فرصة للتعاون والتعارف بين أفراد المجتمع، ومجال لتبادل ما يُنمّي العواطف الإنسانية، ويوثّق الروابط الاجتماعية.

إن كل من سيشهد حفل الزواج سيسهم ولا شك بما يستطيع أن يسهم به فيما يدخل السرور على الزوجين بالتهنئة، بالدعوة الطيبة، بتقديم العون المادي، ونحو ذلك بما هو متعارف.

رابعاً: وليمة العرس والدعاء للعروسين:

أصل الوليمة تمام الشيء واجتماعه، وأولم الرجل: إذا اجتمع خلقه وعقله.

والوليمة مأخوذة من الولم وهو الجمع وزناً ومعنى، لأن الزوجين يجتمعان. وأصلها من تميم الشيء واجتماعه.

فعلى هذا فإن الوليمة هي الأمر الذي تتكامل به عناصر السرور، وينتظم به عقد ذوي القربى والمعارف في احتفال بالزوجين تتم به مظاهر إعلان النكاح.

لقد أمر النبي ﷺ بها، وذكر أنها حق، وأنها أمر لا بد منه. رأى ﷺ على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة فقال: «ما هذا؟» قال: إني تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب، قال: «بارك الله لك، أولم ولو بشاة»^(١). أما من يدعى إليها فالسنة في ذلك أن لا تقتصر الدعوة على طبقة دون أخرى، وشهود الزواج وإعلانه والعلم به حقاً لأفراد المجتمع دون تمييز.

فلا يدعى الأغنياء إليها ويترك الفقراء، بل ينبغي أن تبرز قيمة المساواة، وهي إحدى القيم الإسلامية الأصيلة تبرز في هذا المجال كمسلك عملي يحقق الهدف الذي من أجله شرعت الوليمة. وفي صحيح البخاري أن أنساً كان يقول: بنى النبي ﷺ بامرأة فأرسلني

(١) البخاري (٥١٥٥)، وقوله: «ولو بشاة»، يعني: ولو بشيء قليل، والشاة قليلة بالنسبة لعبد الرحمن بن عوف، لأنه من الأغنياء.

فدعوتُ رجالاً إلى الطعام^(١).

وفي البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه كان يقول: «شر الطعام طعام الوليمة يُدعى لها الأغنياء، ويترك الفقراء»^(٢) وعند مسلم: «شرُّ الطعام طعام الوليمة يُمنعها من يأتيتها، ويُدعى إليها من يأبأها، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله»^(٣).

قوله: «فقد عصى» يدل على أن إجابة دعوة الوليمة واجبة، لأنه لا شيء يكون معصية بتركه إلا وهو واجب.

إن الوليمة التي يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء شر الولايم، لا يرجى خيرها، ولا يتحقق أثرها. فضلاً عما فيها من دعوة المستغني، رياءً وسمعة، وترك المحتاج أنفةً وكبراً!

وأثر عن ابن عباس: «بئس الطعام طعام الوليمة يُدعى إليه الشبعان، ويُحبس عنه الجوعان».

ثم إن على من دُعي أن يُجيب، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله ﷺ إلا من له عذر، وكان ﷺ يحث على إجابة الدعوة بقوله: «فكوا العاني، وأجيبوا الداعي، وعودوا المريض». بل إنه كان يجيب

(١) البخاري (٥١٧٠).

(٢) البخاري (٥١٧٧)، روى موقوفاً ومرفوعاً، فإذا كان كذلك حُكم برفعه.

قال النووي: على المذهب الصحيح لأنها زيادة ثقة.

ومعنى الحديث: الإخبار بما يقع من الناس من مراعاة الأغنياء في الولايم ونحوها، وتخصيصهم بالدعوة، وإبشارهم بطيب الطعام، ورفع مجالسهم وتقديهم وغير ذلك مما هو الغالب في الولايم. والله المستعان.

(٣) مسلم (١٤٣٢).

أي دعوة ولو إلى كراع، قال ﷺ: «لو دعيت إلى كُراع لأجبت، ولو أهدي إلي كُراع لقبلت».

وقال: «أجيبوا هذه الدعوة إذا دعيتم لها».

وكان ابن عمر يأتي الدعوة في العرس وغير العرس وهو صائم. إن إجابة الدعوة تقدير إنساني من المدعو بإزاء تقدير إنساني من الداعي، وكلاهما أمر يُعمّق الصلات الإنسانية، ويُنمّي الروابط الاجتماعية.

«إذا دُعي أحدكم إلى الوليمة فليأتها» وفي رواية: «فليجب»، وفي رواية: «إلى وليمة عرس» وقال: «اتنوا الدعوة إذا دعيتم».

وقال: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسًا كان أو نحوه».

وليس أدل على تأكيد أمر الوليمة في ذاتها، وعلى أن الهدف منها أسمى من مجرد الاجتماع للطعام والشراب من أن الأمر بإجابة الدعوة لها قد جاء عامًا للمفطر والصائم لمن له رغبة في الطعام والشراب، ولمن ليس له.

قال ﷺ: «إذا دُعي أحدكم إلى طعام فليجب فإن شاء طعم، وإن شاء ترك».

وقال ﷺ: «إذا دُعي أحدكم فليجب، فإن كان صائمًا فليصل»^(١)

(١) الصلاة هنا بمعنى الدعاء وهي كقوله تعالى: ﴿حُذِّرْنَا مِنْ آمَوَلِيمَ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ وكان النبي ﷺ إذا أتته الصدقة قال: «اللهم صل على آل فلان» وأتى عبد الله بن أبي أوفى بصدقة قومه إلى النبي ﷺ فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». فدعا لهم بالصلاة عليهم.

- أي يدعو لصاحب الطعام - وإن كان مفطرًا فليطعم» .

فبعد هذا ليس هناك مندوحة أو عذر في ترك إجابة الدعوة إذن، فمن دعي فليجب حتى الصائمون لا ليأكلوا، بل ليشاركوا المحتفلين حفلهم، ويبتهلوا إلى الله بالصلاة والمناجاة أن يبارك هذا الزواج، ويجعل من هذه الأسرة لبنة قوية في بناء المجتمع .

قال النووي: وأما الأعذار التي يسقط بها وجوب إجابة الدعوة أو ندبها فمئها:

أن يكون في الطعام شبهة، أو يُخص بها الأغنياء، أو يكون هناك من يتأذى بحضوره معه، أو لا تليق به مجالسته، أو يدعو له خوف شره، أو لطمع في جاهه، أو ليعاونه على باطل، وأن لا يكون هناك منكر من خمر أو لهو أو فرش حرير أو صور حيوان غير مفروشة أو آنية ذهب أو فضة، فكل هذه أعذار في ترك الإجابة، ومن الأعذار أن يعتذر إلى الداعي فيتركه .

الدعاء للعروسين:

ورد في السنة المطهرة الدعاء للعروسين بعد تمام البناء واستحكامه .
فسنَّ الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - تهنئة الزوج بذلك الدعاء الذي يَشْفُ عَنْ تَأْمِينِ الْخَيْرِ وَرَجَاءِ التَّوْفِيقِ .

وقال ﷺ لعبد الرحمن بن عوف: «بارك الله لك» ودعت نسوة من الأنصار لعائشة حين أدخلت الدار قلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر .
وروى أصحاب السنن: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير» . وليحذر كل من الزوجين كل الحذر من المخالفات

التي تصاحب الزواج وخاصة ليلة الزفاف أو ليلة العمر كما يسميها الشباب، وهي ليلة مجيدة في حياة الزوجين لا ينبغي أن تُحيا بالمنكرات، ومن أقطعها دخول الزوج على النساء ليلة زواجه وهو في أجمل زينة، وهن بكل الحلوى والفتنة، ففي أي مذهب ودين هذا؟ فأين الغيرة يا أهل الغيرة؟! لا يرضى بذلك مسلم عاقل، ولا يتكابر عن تحريره إلا جاهل.

لقد ابتلي المسلمون بأفراحهم فزادوا فيها ما لم يكن، وليس بودي أن أستطرد في هذا الأمر فلا أدري ماذا أتكلم به أو ماذا أدع ولكن: الحلال بيّن والحرام بيّن.

إن اللهو البريء الذي لا يخرج عن حدود المعقول قد أباحتها الشريعة لمناسبة الفرح والسرور اللذان يصاحبان الاجتماع في مثل هذه المناسبة العزيزة، وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله ﷺ: «يا عائشة، ما كان معكم لهو، فإن الأنصار يعجبهم اللهو»^(١).

والدّف مما أباحتها الشريعة للنساء فقط، وبوّب البخاري في صحيحه: باب ضرب الدف في النكاح والوليمة. قالت الرّبّيع بنت معوذ ابن عفراء: جاء النبي ﷺ يدخل حين يُنيّ عليّ، فجلس على فراشي. فجعلت جويريات لنا يضرّبن بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر إذ قالت إحداهن: وفينا نبيّ يعلم ما في غدٍ، فقال: «دعي هذه وقولي

بالذي كنت تقولين»^(١).

واجبات وتوجيهات

من عظمة الإسلام أنه لم يظلم الناس شيئاً! ولكن الناس أنفسهم يظلمون. فعدالته الفذة الفريدة أثبت أن يكون على الزوج حقوق ثم يتركه بعد ذلك بلا حقوق.

إن على المرأة المسلمة المستشعرة لمسؤوليتها ومسؤولية بيتها وزوجها وأولادها أن تقرأ هذه الأسطر بعناية، وأن تعمل بما جاء فيها، ففيها - والله - الحق الذي من عدل عنه ضلّ وقوّض عشه وخسر حياته الزوجية، ومن عملت بالأوامر وانتهت عن النواهي سلكت بنفسها ونجت إلى بر الأمان.

الطاعة بالمعروف:

فللزواج على زوجته حق الطاعة في كل أمر ونهي شريطة ألا يكون في هذا الأمر أو النهي معصية الخالق تبارك اسمه، والمرأة بدورها إذا أمرها زوجها فيلزمها طاعته إلا فيما فيه معصية فلا إذاً، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ﴿فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

(١) عند البيهقي عن عائشة أن النبي ﷺ سمع ناساً يغنون في عرس وهم يقولون:
وأُمّدي لها أكْبَشْ
وحبك في النّسادي
يحبجن في المربرد
ويعلم ما في غد
قالت: فقال رسول الله ﷺ: «لا يعلم ما في غد إلا الله سبحانه».

ولتتذكر كل مؤمنة أن من صلت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها.

الاستجابة له عند ندائه لها:

وأعني بالنداء داعية الجماع وقضاء الوطر والفراش، فلا يجوز لها أن تمتنع عن طلبه، فإن فعلت وامتنعت كانت آثمة عاصية، واستحقت لعنة الملائكة والعياذ بالله، قال البخاري: باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء لعنتها الملائكة حتى تصبح»^(١) وقال: «إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع».

ذكر الحافظ ابن حجر أن بعض العلماء قال: إن أقوى التشويشات على الرجل داعية النكاح، ولذلك حضَّ الشرع النساء على مساعدة الرجال في ذلك.

ولتحذر المسلمة من الغيرة المفضية للمعصية، والغيرة: انفعال يكون في الإنسان، يحب أن يختص صاحبه به دون غيره، ولهذا سميت غيرة؛ لأنه يكره أن يكون الغير حبيباً لحبيبه، والنساء الضرات هن أشد بني آدم غيرة.

قالت عائشة: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة رضي الله عنها.

لا تخرج إلا بإذنه:

ومن الطاعة وهي من المهمات في بقاء العش: ألا تخرج المرأة من المسكن الذي أسكنه زوجها إياها إلا بإذنه.

وإذا خرجت بإذنه وعلمه لا بد أن يكون على الهيئة المطلوبة في شرع الله تعالى، فعليها أن تستر جميع جسدها، ولا تخرج متبرجة بزينة ولا متعطرة.

وهنا مسألة جدية بالبيان والذكر وهي أن بعض النساء - هداهن الله ووفقهن للصواب - يتساهلن بهذا الأمر وهو الخروج من غير علم الزوج حتى ولو رأينا أنه خروج مهم، فلا بد من استئذان الزوج وإعلامه بالقصد والوجهة، فلربما لديه رأي وعلم بالجهة والمكان.

فأَحْذَرُ أولئك من خروجهن بدون إذن أزواجهن؛ لأن ذلك يدعو إلى الشك والريبة والمسألة، والمرأة في غنى عن هذا كله، ولتذكر أنه إذا كانت عبادتها التطوعية لا تجوز إلا بإذن زوجها وهي عبادة الله فكيف بخروجها إلى سوقٍ أو بيتٍ لا يرضاه الزوج.

لا تصوم إلا بإذنه:

وهذا في التطوع، فالواجب الحصول على إذن الزوج، وقد بين العلماء - رحمهم الله - أنها إذا شرعت في صيام التطوع كالاثنين والخميس والأيام البيض ونحو ذلك ولم تحصل على إذنه، فإن من حقه أن يقطع صيامها، أما رمضان وما كان في حكمه فلا يتوقف صيامه على إذن من أحد لوجوبه عليها. وعلة النهي عن الصوم إلا بإذن الزوج هي

أنه قد يريد لها لنفسه، قال البخاري: باب صوم المرأة بإذن زوجها تطوعاً. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تصوم المرأة وبعلمها شاهد إلا بإذنه»^(١).

مشكلة وحل:

لو قُدر أن المرأة خالفت في هذه الواجبات «الطاعة، الاستجابة، الخروج، الصوم» فلم تبعاً بزوجها ولا بحقه عليها فقد أعطى الشرع الحكيم للزوج حق تأديبها، وبيّن لنا ربنا ثلاث وسائل نأخذها من قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ ذُشُورَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضَرُّوهُمْ إِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ [النساء: ٣٤].

فهذه وسائل ثلاث يبينها الآية الكريمة وهي: الوعظ، والهجر، والضرب.

فالوعظ يكون بتخويفها من عدم رضا الله عليها، واستعمال المواعظ الحكيمة والنصائح النافعة، ومن لم ينفع معها ذلك استعمل معها الوسيلة الثانية وهي الهجر في المضجع، وهو نوع وأسلوب من أساليب التأديب، لمن تحب زوجها ويشقُّ عليها هجره إياها.

وليعلم كل زوج أن الهجر هو عبارة عن عدم الالتفات للزوجة وعدم الاستمتاع بها وعدم تقيلها ونحو ذلك، وليس معناه ترك الفراش والحجرة، فهذا فهم خاطئ بعيد عن مراد الآية.

إن من أراد أن يهجر في الفراش فما عليه إلا أن يوليها ظهره ولا

(١) البخاري (٥١٩٢).

يلتفت إليها، ولا يتصل بها اتصالاً جنسياً لعل ذلك يكون مؤثراً عليها في رجوعها عن نشوزها وارتفاعها، ولزومها طاعة زوجها وبرّه والإحسان إليه. أما هجر الكلام فلا يجوز فوق ثلاثة أيام للنهي عنه.

فإذا لم يصلح مع المرأة لا وعظ ولا هجر، صار الزوج إلى الوسيلة الثالثة، فله أن يضربها ضرباً غير مبرح - أي غير شاق ولا مؤذٍ - فلا يكسر لها عظماً، ولا ينتف لها جلداً، ولا يدمي، ويتجنب الوجه والمقاتل.

أما ما يستخدمه بعض الأزواج في تعمد ضرب نسائهم أو الضرب المؤلم المنافي للأخلاق، فهذا لا يجوز؛ حتى لو علم أنها لن ترجع عما هي عليه.

وضرب الزوجة في الشريعة الإسلامية ليس بعزيمة بل هو رخصة، ولا يحل استعمال هذه الرخصة إلا مع زوجة لم تصلح معها الموعظة، ولم يفلح معها الهجر.

قال الرازي: «فالتخفيف مراعى في هذا الباب على أبلغ الوجوه، والذي يدل عليه أنه تعالى ابتدأ بالوعظ، ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع، ثم ترقى منه إلى الضرب، وذلك تنبيه يجري مجرى التصريح في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق».

وبعد ننتقل - بك أخي القارئ أختي القارئة - إلى موضع لا يقل أهمية، فيه تزكية المسلم والمسلمة وتطهيرهما من الدنس والرجس والذنوب والمعاصي، وذلك بتربية الضمير التربية الإيمانية الصحيحة

وتعميق تلك المعاني السامية في النفس، حتى لتجد هذا يشرق وتفيض أنواره وآثاره على السلوك والأخلاق وسائر المعاملات، فالمؤمنون والمؤمنات المؤتمرون بأمر الله والمنتهون عما نهى الله عنه، يتصفون بصفة الحياء التي هي من أجل الأخلاق التي يمنحها الله العبد ويجبله عليها.

والحياء هو الحارس على الضمير الذي يكف الإنسان عن الإقدام على الفحشاء والمنكر، فهو إذا ارتكب سيئة أو معصية بدافع جبلة الحيوانية، حَزَّ في نفسه هذا الحياء ونَغَص عليه عيشه، ويعود بالتوبة والندم وإصلاح ما فات، والعزم على التزام جانب الصواب. وقد أقسم الله بالنفس اللوامة ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ١ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ [القيامة: ١، ٢].

فاللوامة صيغة مبالغة من اللوم، وهو شدة التعنيف والمؤاخذة، توقظ في صاحبها روح الإنابة والتوبة، فهي تلوم صاحبها عند ارتكابه المعاصي وتردعه عن مقارفتها، وتحثه على التوبة والندم، وتحمله حملاً على الرجوع عن غير سبيل المؤمنين، والاتجاه إلى الله تعالى لإصلاح ما فات، وطلب العفو عما اجتراح من سيئات. إن تهذيب النفوس وتطهير الأخلاق وتصحيح المفاهيم، كل هذا يحمل النفوس على ترك الشر رغبة عنه وكراهية له.

يقول الشاعر:

ولا تتنه الأنفس عن غيرها
ما لم يكن لها من نفسها زاجر

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾
[النازعات: ٤٠، ٤١].

إن خلق الحياء لعظيم فهو جزء من الإيمان وشعبة منه، ودعامة أساسية من دعائم الأخلاق الحميدة، يقول الرسول ﷺ: «إن الحياء لا يأتي إلا بخير» وقال أيضاً: «الحياء كله خير».

إن من فقد خلق الحياء خرج عن الفضائل كلها وتجراً على فعل المعاصي، يقول ﷺ في تحذير وذم من فقد الحياء: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١).

ومرَّ ﷺ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال: «دعه فإن الحياء من الإيمان»^(٢)، وكان هو صلى الله عليه وسلم أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، إنه لا بد للزوجين من تربية إيمانية ووسائل وقائية لحمايتهما، وبقاء بيتهما. ولعلي أُنبه على أهم الوسائل الوقائية لحماية وسلامة النفس:

١- غرض البصر:

لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بغض البصر؛ لأن النظرة هي أكبر خائنة نفسية، وهي سهم من سهام إبليس المسمومة، وهي نافذة القلب وبريده.

ألم تر أن العين للقلب رائد
فما تآلف العيان فالقلب آلف

(١) البخاري (٣٤٨٤).

(٢) متفق عليه.

لذا ورد الأمر في القرآن بغض البصر: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾ [النور: ٣٠].

فأمر سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار عما لا يحل، فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة، ولا المرأة إلى الرجل، فإن علاقتها به كعلاقته بها، وقصدها منه كقصده منها، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر»^(١). وفي رواية: «فالعينان زناهما النظر».

وفي الصحيحين عنه عليه الصلاة والسلام أنه صرف وجه الفضل عن الخثمية حين سألته، وطفق الفضل ينظر إليها وتنظر إليه.

قال عنترة وهو جاهلي:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتني

حتى يوارى جارتني مأواها

قال الإمام القزطبي: البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأمر

طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته.

فالواجب الحذر منه، والغض منه عن جميع المحرمات، وكل ما

يُخشى الفتنة من أجله، وقد قال ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات»

وفي رواية: «بالطرقات» فقالوا: يا رسول الله، مالنا من مجالسنا بُدِّتْ تحدث

فيها. فقال: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق

الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر»^(١) وقد قال ﷺ لعلي رضي الله عنه: «لا تُتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية». وسأل جريرُ النبي ﷺ عن نظرة الفُجأة، قال جرير: «فأمرني أن أصرف بصري». فعلى كل من الزوج والزوجة ألا يتعبا بصريهما ويقلبانه فيما لا ينفعهما وخاصةً فتن هذا الزمان، فقد ابتلي الكثير بالقنوات والشاشات المحرمة التي تعرض المنكر والخَبْث، وكذلك الإنترنت وما فيه من فساد وعار.

قال ابن الجوزي: قوله: «فإنما لك الأولى وليست لك الثانية» وهذا لأن الأولى لم يحضرها القلب، ولا يتأمل بها المحاسن، ولا يقع الالتذاذ بها، فمتى استدامها مقدار حضور الذهن كانت الثانية في الإثم. **وقال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا - رحمه الله -:** «المراد النظر إلى المرأة الأجنبية، والمعنى: إذا وقع نظرك بدون قصد على امرأة أجنبية فغض بصرك، ولا تنظر إليها مرة أخرى «فإن الأولى» يعني التي وقعت بغير قصد «لك» أي: جازت لك بدون إثم لكونها بغير قصد «وليست لك» النظرة الأخيرة «الثانية» لكونها مقصودة فإثمها عليك.

ونقل السَّقَّاريني عن ابن الجوزي قوله: ربما تحايل أحد جواز القصد للأولى، وليس كذلك، وإنما الأولى التي لم يقصدها.

٢- النهي عن التبج وإظهار الزينة والعطر:

وذلك كي يظل المجتمع نقيًا سليمًا وتبقى النفوس طاهرةً من نوازع

الشر والفتنة فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج من بيتها بكامل زينتها لتفتن الناس، والأمر قد زاد عن حده فصارت المرأة تخرج الآن إلى الأسواق والمحلات بزينتها وحسنها متبرجة سافرة تمشي بين يدي الرجال قد اختلطت بهم وزاحمتهم فنقول: بيتك تُريحي وتسترحي .

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

إن المرأة إذا استعطرت فمرّت بالمجلس فهي كذا وكذا، يعني: زانية - والعياذ بالله - كما جاء ذلك عن النبي ﷺ.

بل إن كل ما يؤدي إلى إثارة الرغبات وكوامن الغريزة، فالمرأة منهية عنه وخاصة ما كان بالحركات أو الأصوات التي تؤثر في سمع السامع فتثير الرغبة الهاجعة في نفوس الناس ﴿وَلَا يَضُرَّيْنِ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفَيْنِ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

بل حتى صوت المرأة وجه الله سبحانه الخطاب فيه لزوجات النبي ﷺ - وهن القدوة في هذا - بالألّا يخضعن بالقول حتى لا يطمع ذلك فيهن مرضى القلوب والنفوس، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فلتتقي الله كل فتاة، ولتحافظ على عرضها ولا تعرضه وتدنسه، فالفتن تتلاطم، وأهل الشر كثروا، والموفق من وفقه الله .

٣- الحجاب وستر العورة:

لقد انتشرت المغريات في بلاد المسلمين وما ذاك إلا بسبب التقليد الأعمى الذي أصيبوا به وخاصة لكل ما هو آتٍ من الغرب، فبيوت

الأزياء ومصانع التجميل قد غزت ديار المسلمين، ووجدت من جسد المرأة المسلمة تجارة راحبة، فأنتجت هذه البيوت والمصانع ولا تزال تنتج إلى اليوم أزياء فاضحة ومساحيق ملونة ضارة، وروجت تلك الدعايات وسائل الإعلام، ونجح اليهود في إفساد المرأة المسلمة فانسأقت وللأسف في هذا المستنقع والتيار الهدام، خرجت بعض النساء متبذلات سافرات لا يُفرّقن بين ما هو نافع وما هو ضار، تخرج من منزلها إلى أماكن اللهو والعبث واللعب غير عابئة بمغبة ذلك الخروج وآثاره عليها وعلى مجتمعها.

كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، والنساء أكثر ما يطفن ليلاً وهذا شيء قد ابتدعه من أنفسهم، واقتدوا فيه بأبائهم، فجاء الإسلام فأمر الناس بالعودة إلى فطرتهم الشوية وترك الجاهلية الهابطة الداعية إلى كشف الأجساد والعورات، فأمر بحجب المرأة من الرجال، وعدم اختلاطها بهم، وعلى ستر العورات، والمرأة كلها عورة إلا وجهها في الصلاة.

إن كثيراً من أمورنا لن تعود إلى طريقها الصحيح إلا إذا عادت المرأة إلى حشمتها، وحجابها، وحيائها، ففي ذلك الحماية والصون لعفافها واحترام لشخصيتها.

فعلى الزوجة أن تتقي الله في هذا الأمر، وأن تلتزم بأوامر الدين والشرع؛ لأنها الطريقة المثلى لتطهير المجتمع من آثار الفواحش، والابتعاد بها عن عوامل الفتنة، ودواعي الغواية، فالإسلام يجفف موارد الفساد والفتنة، ويسد كل الذرائع الموصلة إلى ارتكاب الفواحش،

وإنني أقول لكل فتاة قد هتكت حجابها، وكشفت عن عورتها: إن هذا بجانب أنه معصية لله، وخطرٌ على عرضها، فهو سببٌ كبير لعزوف كثير من الشباب عنك، لأن انهيار الآداب، وانحلال الأخلاق من المرأة والبت، لا يُبقيان لها كرامة، ولا رغبة، فمن خانت قبل الزواج فربما تخون بعده. والحافظ هو الله.

حُسن العشرة:

إن الكلمة الطيبة بين الزوجين لتعمل عملها الفاعل في تحقيق التفاهم حتى يشعر كل من الزوجين أنه بحاجة إلى الآخر لاستكمال سعادته، وكلنا يود أن يُقدَّر، وأن يُذكر بخير، وأكثرنا لا يألُو جهدًا في إتقان عمله إذا سمع كلمة حَمْدٍ، أو عبارة تقدير، فالطريق إلى قلب الزوجة أن تدعها تدرك أنك تعرف قيمتها ولا تنكرها.

إنَّ كثيرًا من الأزواج يعملون جاهدين على إجابة المطالب المادية وهنا سؤال؟

هل فكرت أخي الحبيب في تغذية الروح لدى زوجتك وتغذية عقلها؟ إن ما يتعاطاه الجسم لا يلبث أن يُفقد، أما الروح فهي بحاجة إلى إشباع عاطفي، فإذا فقدت هذا العنصر غدت كالتمثال الذي لا حراك فيه ولا حياة!

إن المرأة عند زوجها كالأسيرة، نعم أسيرة لمن يُعاملها بحسن التقدير والرافة والدين والتسامح والتجاوز عن التوافة والمحاسبة الرقيقة والعتاب الناعم الخفيف وَقَعُهُ على الأسماع. كل ذلك احترام منك لشخصيتها، وإكرام لنفسها، بل هو في الواقع إكرام لنفسك في الوقت

نفسه، فالمرء لا يتوخى كرم النفس والأدب مع الغير لأنهم سادة كرام فحسب، بل لأنه أيضاً سيد كريم وإنسان كبير.

وقد قال معاوية - رضي الله عنه -: «يغلبن الكرام، ويغلبهن اللثام». إن سعادة الحياة الزوجية مرهونة بالأخلاق والمعاملة الحسنة والمعاشرة الطيبة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ﴾.

كان ابن عباس - رضي الله عنهما - يتزين لامراته ويقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ﴾ إن الإسلام يأمر الزوج بحسن العشرة مع زوجته وليس هذا فحسب، بل إنه يُروّض الزوج ويحثه على تحمل ما يكرهه من الزوجة في أي شأن، ومن توجيهات القرآن الكريم في ذلك قوله سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أما من السنة فقد قال ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» يعني: لا يبغضها لأخلاقها، إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر.

إذا أساءت مثلاً في ردّها عليك مرة، لكنها أحسنت إليك مرات، أساءت ليلة، لكنها أحسنت ليالي، أساءت في معاملة الأولاد مرة، لكن أحسنت كثيراً.

فأنت إذا أساءت إليك زوجتك لا تنظر إلى الإساءة في الوقت الحاضر، ولكن انظر إلى الماضي وانظر للمستقبل واحكم بالعدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قضايا ومستجدات تخص الفتاة والأمهات

ستتناول في هذا الجانب عدة موضوعات ونقاط مهمة وهي :

- ١ - موقف المرأة المسلمة من الأحداث الإسلامية المعاصرة .
- ٢ - اختيار الزوج والزوجة .
- ٣ - تزويج الأب ابنته بغير رضاها .
- ٤ - الإسلام وعمل المرأة .

أما عن موقف المرأة المسلمة من الأحداث المعاصرة التي تجابهها أمة الإسلام، فالواجب أن تعي كل امرأة مسلمة موقعها من الأحداث وماذا عليها عمله؟

لورجعنا إلى عصر الإسلام وما بعده من عصور الازدهار الإسلامي نجد أن المرأة كان لها دورها في مسيرة الدعوة منذ يومها الأول وفي العهد المكي والعهد المدني . لا ننسى دور أمهات المؤمنين، ونساء الصحابة - رضي الله عنهن - فقد شاركن في العبادة والعمل والجهاد، ووجدنا البخاري يذكر في صحيحه «باب غزوة النساء وقتالهن» .

ووجدنا في كتب التراجم والطبقات على اختلاف أنواعها عددًا غير قليل من النساء المتفوقات في شتى المجالات .

واليوم وبعد أن فشا التعليم بين نساء المؤمنين لا بد أن يكون العمل مضاعفًا والجهود كبيرة، فالعمل للإسلام وقضاياها المصيرية ليس وقفًا على الرجال، فالمرأة مسؤولة كالرجل ومكلفة مثله وقد قال تعالى : ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ مَنكُم مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتِ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران : ١٩٥] ،

وقال ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال» .

أما عن اختيار الزوج واختيار الزوجة:

فالإسلام يوجه الشاب المسلم إذا أراد الزواج إلى اختيار الفتاة الصالحة التي تكون عونًا له على أمر دينه، تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، وتنصح له إذا حضر، وتحفظه إذا غاب في نفسها وماله، كما قال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وهذا ما ينبغي أن يلتفت إليه المسلم، ويحرص عليه، ولا يكون همه محصوراً في مجرد الجمال أو النسب أو المال بل الصلاح، كما قال الرسول الكريم ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»، وقال: «من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الباقي» . وقال: «ما استفاد المؤمن من بعد تقوى الله خيراً من امرأة صالحة» .

وصلاح المرأة إنما يتجلى في التزامها الديني، بحيث تكيف سلوكها وفقاً لأمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه، فمن وجد هذه المرأة فقد وجد كنزاً عظيماً لا يجوز التفريط فيه بحجج واهية، وحسبنا وصية رسول الله ﷺ الواضحة لطالب الزواج، والتي وضعت أمامه المعيار الذي لا يخطئ «فاظفر بذات الدين تربت يداك» .

إن كثيراً من الآباء والأمهات قد فرطوا في هذا الأمر أيما تفريط، فصار الالتزام الديني عندهم لا يعني شيئاً أمام وظيفة المرأة ومُرتبها فترك الشاب المسلم الملتزم ليتزوج بأي امرأة ربما مستهتره تنغص عليه عيشه، وتغدو حجر عثرة بدل أن يبحثوا له عن من تعينه على

دينه وديناه . مع أن الطبيعي أن ينجذب إلى من تكون على شاكلته ، فشيبه الشيء ينجذب إليه ، «والطيور على أشكالها تقع» .

ومثل هذا يُقال للفتاة المسلمة ولأهلها خاصة عندما يتعرض لها الحُطَّاب ، فالواجب تخيّر صاحب الدين الذي يرعى حقها ويتقي الله فيها ، ويعينها على التزامها ، ويضع يده في يدها للعمل معًا في خدمة الإسلام ، وفي هذا جاء الحديث الشريف : «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» .

أما الزواج من ذي منصب ، وذي مال بنية دعوته والعمل على صلاحه وهدايته ، فهي نية طيبة ولكنها مخاطرة كبيرة لا تُؤمن نتائجها . وقد قيل : إذا زوجت ابنتك فزوجها ذا دين ، إن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها .

إن المنهج المقبول الميسور هنا أن يبحث المسلم الملتزم ، وتبحث المسلمة الملتزمة عمّن يشابهه ويلتقي معه في التزامه وتفكيره وسلوكه ؛ بل يحسن أن يكون كلاهما متقاربين في نمط التفكير والاتجاه حتى لا يعيشا حياتهما في جدل دائم ، قد يؤدي في النهاية بحياتهما المشتركة . هذا هو منطق الفطرة ، ومنطق الواقع ، ومنطق القرآن : ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور : ٢٦] .

أما عن تزويج الأب ابنته بغير رضاها :

فقد قال شيخ الإسلام في فتاويه : إن استئذان البكر البالغ واجب على الأب وغيره ، وإنه لا يجوز إجبارها على النكاح ، وإن هذا هو الصواب . وقال : إن جعل البكارة موجبة للحجر مخالف لأصول الإسلام ،

وتعليل الحجر بذلك تعليل بوصف لا تأثير له في الشرع .

وقد صحَّ عن النبي ﷺ جملة أحاديث توجب استثمار الفتاة أو استئذانها عند زواجها، فلا تزوج بغير رضاها، ولو كان الذي يزوجه أبها .

أما عن موقف الإسلام من عمل المرأة فأقول:

عمل المرأة الأول والأعظم الذي لا ينافيها فيه منازع، ولا ينافسها فيه منافس، هو تربية الأجيال، الذي هيأها الله له بدنًا ونفسًا، ويجب أن لا يشغلها عن هذه الرسالة الجليلة شاغل مادي أو أدبي مهما كان، فإن أحدًا لا يستطيع أن يقوم مقام المرأة في هذا العمل الكبير، الذي عليه يتوقف مستقبل الأمة، وبه تتكون أعظم ثرواتها وهي الثروة البشرية .

الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعبًا طيب الأعراق

وهذا كله لا يعني أن عمل المرأة خارج بيتها محرم شرعًا، ربما أن عمل المرأة في ذاته جائز، وقد يكون مطلوبًا إذا احتاجت هي إليه، كأن تكون أرملة، أو مطلقة، ولا مورد لها ولا دخل ولا عائل وهي قادرة على نوع من الكسب يكفيها ذل السؤال أو المنة .

وقد تكون بعض الأسر بحاجة إلى عملها، كأن تعاون زوجها أو تُربي أولادها أو إخوتها الصغار، أو تساعد أبها في شيخوخته، كما في قصة ابنتي الشيخ الكبير، التي ذكرها القرآن الكريم في سورة القصص وكانتا تقومان على غنم أبيهما: ﴿لَا تَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُوكَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ .

وقد يكون المجتمع نفسه في حاجة إلى عمل المرأة كما في تطبيب

النساء وتمريضهن وتعليمهن ونحو ذلك من كل ما يختص بالمرأة .

إننا إذا أجزنا عمل المرأة فالواجب أن يكون مقيداً بعدة شروط :

١ - أن يكون العمل في ذاته مشروعاً ، لا تشوبه شائبة إثم ، فلا يجوز لمسلمة أن تعمل بمكان يوجد فيه اختلاط بالرجال أو مخاطبتهم ونحو ذلك .

٢ - أن تلزم أدب المرأة المسلمة إذا خرجت من بيتها في الرّي والمشي والكلام والحركة ﴿ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ .

٣ - ألا يكون عملها على حساب واجبات أخرى لا يجوز لها إهمالها كواجبها نحو زوجها وأولادها ، وهو واجبها الأول وعملها الأساسي .

بيان أحكام تحفظ للمرأة كرامتها وتصون عفتها

إن هذا الباب إذا روعي جانبه واحتيط له كفيل بتحقيق حفظ الله ، والنبي ﷺ يقول : « احفظ الله يحفظك » .

إن من مقتضى الإيمان الغض عما حرم الله تعالى النظر إليه ، فهو سبحانه خبير بما يصنعه عباده مُطلع على أفعالهم وأحوالهم ، وكيف يجيلون أبصارهم ، وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم ، فالواجب على العبد ذكراً كان أم أنثى أن يكونا من الله على تقوى وحذر ، في كل حركة وسكون .

وقد أفادت آية تحريم النظر إلى النساء في سورة النور إلى تحريم

النظر أيضاً إلى عورات الرجال وتحريم كشفها. وقد قَدَّمَ الله غض
الْأَبْصَارِ عَلَى حِفْظِ الْفُرُوجِ؛ لَأَنَّ النَّظَرَ بَرِيدُ الزَّنا وَرَائِدُ الْفُجُورِ.
وَكُنْتَ إِذَا أُرْسِلْتَ طَرَفُكَ رَائِدًا^(١)

لِقَلْبِكَ يَوْمًا، أَتَعْبِتُكَ الْمَنَاطِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلَّهُ أَنْتَ قَادِرٌ

عَلَيْهِ، وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ
وَلَأَنَّ الْبُلُوْى فِيهِ أَشَدُّ وَأَكْثَرُ، وَلَا يَكَادُ يَقْدِرُ عَلَى الْإِحْتِرَاسِ مِنْهُ،
فَيُودِرُ إِلَى مَنْعِهِ، وَغَضُّ الْبَصَرِ مِنْ أَجْلِ الْأَدْوِيَةِ لِعِلَاجِ أَمْرَاضِ
الْقُلُوبِ، وَفِيهِ حَسْمٌ لِمَادَتِهَا قَبْلَ حَصُولِهَا، فَإِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مَسْمُومٌ
مِنْ سَهَامِ إِبْلِيسَ، وَمَنْ أَطْلَقَ لِحَظَاتِهِ، دَامَتْ حَسْرَاتِهِ.

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ

وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْفَرِ الشَّرِّ

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ: «وَأَمَّا اللَّحْظَاتُ فَهِيَ رَائِدَةُ الشَّهْوَةِ وَرَسُولُهَا،

وَحِفْظُهَا أَصْلُ حِفْظِ الْفَرْجِ، فَمَنْ أَطْلَقَ نَظْرَهُ أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الْهَلَاكِ. وَقَدْ
قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَلِيُّ، لَا تَتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى» الْمُرَادُ
بِهَا نَظْرَةُ الْفَجْأَةِ الَّتِي تَقَعُ بَدُونِ قَصْدٍ قَالَ: وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ ﷺ: «النَّظَرُ
سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سَهَامِ إِبْلِيسَ إِلَى أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالنَّظَرُ أَصْلُ عَامَةِ

(١) الرَّائِدُ: الَّذِي يَتَقَدَّمُ الْوَارِدَةَ، لِيَتَأَمَّلَ حَالَ الْمَاءِ وَالْكَأِ لَهُمْ.

الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد الخطرة، ثم تولد الخطرة فكرةً، ثم تولد الفكرة شهوةً، ثم تولد الشهوة إرادةً، ثم تقوى فتصير عزيمةً جازمةً فيقع الفعل ولا بدّ ما لم يمنع منه مانع. ولهذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده^(١). اهـ.

فعلى الأخوات المسلمات غض البصر عن النظر إلى الرجال، وعدم النظر في الصور الفاتنة التي تُعرض في بعض المجلات أو على الشاشات في التلفاز أو الفيديو، تسلمي من سوء العاقبة. فكم نظرة جرّت على صاحبها حسرة، والنار من مستصغر الشرر.

الابتعاد عن استماع الأغاني والمزامير

قال الإمام العلامة ابن القيم: «ومن مكائد الشيطان التي كاد بها من قلّ نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين، سماع المكاء والتصديّة، والغناء بالآلات المحرمة الذي يصدّ القلوب عن القرآن ويجعلها عاكفةً على الفسوق والعصيان، فهو قرآنُ الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهورقية اللواط والزنا، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى. إلى أن قال: وأما سماعه من المرأة أو الأمرد فمن أعظم المحرمات وأشدّها فساداً للدين.

ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء كما يجنبهن أسباب

(١) ابن القيم، الجواب الكافي ص (١٢٩).

الريب .

فلتق الله كل مسلمة ولتحذر هذا المرض الخلقي الخطير، وهو استماع الأغاني التي راجت بين المسلمين بمختلف الوسائل وأنواع الأساليب .

منع المرأة أن تسافر إلا مع ذي محرم

يصونها ويحميها من أطماع العابثين والفسقة، فقد جاءت الأحاديث الصحيحة تمنع سفر المرأة بدون محرم، منها:

١ - ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا ومعها ذو محرم» [متفق عليه].

٢ - وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «نهى أن تسافر المرأة مسيرة يومين أو ليلتين إلا ومعها زوجها أو ذو محرم». [متفق عليه].

٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا يحل لامرأة تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها» [متفق عليه].

وفي هذه الأحاديث الثلاثة بيان لما كان عليه الأمر في ذلك الزمان من سير الأقدام والرواحل، واختلاف الأحاديث في هذا التقدير بثلاثة أيام أو يومين أو يوم وليلة وما هو أقل من ذلك أجاب عنه العلماء: بأنه ليس المراد ظاهره وإنما المراد كل ما يُسمى سفرًا فالمرأة منهية عنه .

قال الإمام النووي: «إن كل ما يسمى سفرًا تُنهى عنه المرأة بغير

زوج أو محرم سواء كان ثلاثة أيام أو يومين أو يوماً»^(١).

وقال الإمام الخطابي: «وقد حظر النبي ﷺ عليها أن تسافر إلا ومعها رجل ذو محرم منها»^(٢).

وقال النووي: «لا يجوز في التطوع - للحج والعمرة - وسفر التجارة، والزيارة، ونحوهما، إلا بمحرم»^(٣).

فالذين يتساهلون في هذا الزمان في سفر المرأة بدون محرم في كل سفر لا يوافقهم عليه أحد من العلماء الذين يُعتمد بقولهم. وبعض الناس يُركبها في الطائرة ثم يستقبلها محرمها الآخر عند وصولها بحجة أن الطائرة مأمونة بزعمهم لما فيها من كثرة الركاب من رجال ونساء، فيقال: كلا، فالطائرة أشدَّ خطرًا من غيرها، لأن الركاب يختلطون فيها، وربما تجلس إلى جنب رجل، وربما يعرض للطائرة ما يصرفها عن اتجاهها إلى مطار آخر، فلا تجد من يستقبلها فتكون معرضة للخطر. وماذا تفعل المرأة في بلد لا تعرفه، ولا محرم لها فيه.

الخلوة بين المرأة والرجل الذي ليس محرماً لها

قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم منها، فإن ثالثهما الشيطان».

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١٠٣/٩).

(٢) الخطابي، معالم السنن (٢٧٦/٢).

(٣) النووي، المجموع شرح المذهب (٢٤٩/٨).

وعن عامر بن ربيعة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة لا تحل له، فإن ثالثهما الشيطان إلا محرم».

قال المجد في «المنقضي»: رواهما أحمد وسبق معناه لابن عباس في حديث متفق عليه.

قال الإمام الشوكاني: «والخلوة بالأجنبية مجمع على تحريمها كما حكى ذلك الحافظ في الفتح. وعلة التحريم ما في الحديث من كون الشيطان ثالثهما، وحضوره يوقعهما في المعصية. وأما مع وجود المحرم فالخلوة بالأجنبية جائزة لامتناع وقوع المعصية مع حضوره»^(١).

إن ناسًا ونساءً قد تساهلوا بأنواع من الخلوة وهي:

أ- خلوة المرأة مع قريب زوجها وكشف وجهها عنده:

وهذه الخلوة أعظم خطرًا من غيرها، قال ﷺ: «إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمى؟ قال: الحمى الموت». والحمى أخو الزوج، كأنه كره أن يخلو بها. والأحماء: هم أقارب زوج المرأة كآبائه وعمه وأخيه وابن أخيه وابن عمه، أما آباء الزوج وأبنائه فهؤلاء محارم للزوجة يجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت.

(١) الشوكاني، نيل الأوطار (٦/١٢٠).

وقد جرت العادة بالتساهل عند كثير من الناس في كثير من البلدان فيخلو الأخ بامرأة أخيه فشبَّهه بالموت وهو أولى بالمنع؛ لأنه ربما وثق به فصار يتردد وأمن جانبه، فيكون حبلاً من حبال الشيطان نعوذ بالله من ذلك.

قال الشوكاني: قوله: «الحمو الموت» أي: الخوف منه أكثر من غيره، كما أن الخوف من الموت أكثر من الخوف من غيره. فلا يجوز التساهل بهذا الأمر وإن تساهل به بعض الناس؛ لأن العبرة بحكم الشرع لا بعادة الناس.

ب - خلوة المرأة وحدها في السيارة مع سائق غير محرم لها.

وهذا مما كثر في زماننا، وعمَّت به البلوى، وتوسعت به النساء كثيراً، فلا دين يمنع، ولا خلق يردع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم: «والآن لم يبق شك في أن ركوب المرأة الأجنبية مع صاحب السيارة منفردة بدون محرم يرافقها منكر ظاهر، وفيه عدة مفاصد لا يُستهان بها. . والرجل الذي يرضى بهذا لمحارمه ضعيف الدين، ناقص الرجولة، قليل الغيرة على محارمه، وقد قال ﷺ: «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»، وركوبها معه في السيارة أبلغ من الخلوة بها في بيت ونحوه، لأنه يتمكن من الذهاب بها حيث يشاء من البلد أو خارج البلد طوعاً منها أو كرهاً،

ويترتب على ذلك من المفساد أعظم مما يترتب على الخلوة المجردة»^(١).

إلى كل مسلمة تؤمن بالله وبوعده، وتخاف من عقابه ووعيده: لا بد أن يكون الشخص الذي تزول به الخلوة كبيراً، فلا يكفي وجود الطفل، وماذا عسى أن يفعل أبو أربع سنوات، والخمس، والست. وما تظنه بعض النساء أنها إذا استصحبت معها طفلاً زالت الخلوة، ظن خاطئ.

قال الإمام النووي: «وأما إذا خلا الأجنبي بالأجنبية من غير ثالثٍ معهما، فهو حرام باتفاق العلماء، وكذا لو كان معهما من لا يُستحي منه لصغره، لا تزول به الخلوة المحرمة».

جـ. ذهاب المرأة وخلوتها مع الطبيب بحجة العلاج:

وهذا منكرٌ عظيمٌ وكبيرٌ لا يجوز إقراره والسكوت عليه. قال الشيخ محمد إبراهيم: «وعلى كل حال، فالخلوة بالمرأة الأجنبية محرمة شرعاً ولو للطبيب الذي يعالجها، لحديث: «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما» فلا بد من حضور أحدٍ معها سواء كان زوجها أو أحد محارمها الرجال، فإن لم يتها فلو من أقاربها النساء، فإن لم يوجد أحد ممن ذكر وكان المرض خطراً لا يمكن

(١) محمد بن إبراهيم، الفتاوى (١٠/٥٢).

تأخيره فلا أقل من حضور الممرضة ونحوها تفادياً من الخلوة المنهي عنها»^(١).

ولا يجوز خلوة الطبيب بالمرأة الأجنبية منه، سواء كانت طبيبة زميلة له، أو ممرضة، ولا خلوة المدرس الكفيف أو غيره بالطالبة، ولا خلوة المرأة المضيفة في الطائرة مع رجل أجنبي فيها. وهذه الأمور قد تساهل فيها الناس باسم الحضارة الزائفة والتقليد الأعمى للكفار ولعدم المبالاة بالأحكام الشرعية.

د - خلوة الرجل بالخادمة والمرأة صاحبة البيت بالخادم.

إن مشكلة الخدم اليوم مشكلة خطيرة ابتلي بها كثير من الناس بسبب انشغال النساء بالدراسة والوظيفة، وذلك يوجب شدة الحذر وعمل الاحتياطات، فالفتن بهؤلاء وغيرهم قد عمّ السهل والوادي. **وأخيراً نقول:** إن الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، هو التباعد عن جميع الفتن وأسبابها، والسلامة منها مطلب، والموفق من عافاه الله وأهله.

* * *

أحكام وأحوال وآداب

المرأة المسلمة لها مكانتها وقيمتها في مجتمعها، فمتى تقيدت والتزمت بدينها أصبحت ذات كيان عظيم يزاها كل أحد بالتقدير والاحترام. أما إذا ابتعدت عن تعاليم دينها، ورضيت بالعادات، وخرجت متبرجة مشتهرة فالناس يلوكونها ولا يعبئون بها.

وإليكم بعض الأحكام والآداب في أحوال متعددة فيما يخص التزين الجسمي للمرأة، وغيره من الأحكام الشرعية والمترتبة على بعض أحكام الزوجية وإنهائها.

خصال الفطرة:

إن مما يجب أن تفعله المرأة من خصال الفطرة ما تختص به ويليق بها من قص الأظافر وتعاهدها، لأن تقليم الأظافر سنة بإجماع أهل العلم.

وتقليم الأظافر من خصال الفطرة الواردة في الحديث، ولما في إزالتها من النظافة والحُسن، وما في بقائها طويلة من التشويه والتشبه بالسباع وتراكم الأوساخ تحتها، ومنع وصول الماء إلى تحتها. إن بعض المسلمات قد ابتلن بتطويل الأظافر تقليدًا للكافرات وجهلاً بالسنة.

ومما يُسن للمرأة: إزالة شعر الأبطين والعانة، عملاً بالحديث الوارد في ذلك ولما فيه من التجميل، ويكون ذلك كل أسبوع أو لا

يترك أكثر من أربعين يومًا.

ممنوع ومرغوب:

على المسلمة توفير شعر رأسها، ويحرم عليها حلقه إلا من ضرورة.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم: وأما شعر رؤوس النساء فلا يجوز حلقه لما رواه النسائي في سننه بسنده عن علي - رضي الله عنه - والبخاري بسنده عن عثمان، وابن جرير بسنده عن عكرمة، قالوا: نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها.

والنهي إذا جاء عن النبي ﷺ فإنه يقتضي التحريم ما لم يرد له معارض.

قال ملا علي قاري: قوله: «أن تحلق رأسها» وذلك لأن الذوائب للنساء كاللحي للرجال في الهيئة والجمال.

متى يُرخص للمرأة في قص شعرها؟:

يُرخص في قصه إذا كان لحاجة غير الزينة كأن تعجز عن مؤنته أو يطول كثيرًا ويشق عليها، فلا بأس بقصه بقدر الحاجة.

أما من تقص الشعر بدافع التشبه بالكافرات والفاسقات أو التشبه بالرجال، فهذا محرم بلا شك للنهي عن التشبه بالكفار عمومًا وعن التشبه بالرجال، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «إن العرف الذي صار جاريًا في كثير من البلاد بقطع المرأة شعر رأسها إلى

قرب أصوله، سنة أفرنجية مخالفة لما كان عليه نساء المسلمين ونساء العرب قبل الإسلام، فهو من جملة الانحرافات التي عمت البلوى بها في الدين والخلق والسمت وغير ذلك»^(١).

فعلى المرأة أن تحتفظ بشعر رأسها وتعتني به وتجعله ضفائر، ولا يجوز لها جمعه فوق الرأس أو من ناحية القفا.

صحَّ في حديث أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة في حديث طويل قوله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس - وهم الشُّرط ونحوهم - ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنة البخت العجاف، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».

وقد فسّر بعض العلماء «مائلات مميلات» أنهن يتمشطن المشطة الميلا، وهي مشطة البغايا، ويمشطن غيرهن تلك المشطة، وهذه مشطة نساء الإفرنج ومن يحذو حذوهن من نساء المسلمين.

قال شيخ الإسلام: «كما يقصد بعض البغايا أن تضفر شعرها ضفيراً واحداً مسدولاً بين الكتفين»^(٢).

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية: «وأما ما

(١) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى (١٤٥/٢٢).

يفعله بعض النساء في هذا الزمن من فرق الشعر من جانب وجمعه من ناحية القفا أو جعله فوق الرأس كما تفعله نساء الإفرنج فهذا لا يجوز لما فيه من التشبه بنساء الكفار» .

أمرٌ مهمٌ:

كما تمنع المرأة المسلمة من حلق شعر رأسها أو قصه من غير حاجة فإنها تمنع من وصله والزيادة عليه بشعر آخر، لما في الصحيحين: «لعن رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة» .

الواصلة: هي التي تصل شعرها بشعر غيرها .

المستوصلة: هي التي يُعمل بها ذلك لما في ذلك من التزوير .

ومن الوصل المحرم: لبس الباروكة المعروفة في هذا الزمان، وهي

شعر صناعي يشبه شعر الرأس، وفي لبسها تزوير .

خطب معاوية الناس لما قدم المدينة وأخرج كبةً من شعر فقال: ما بال

نسائكم يجعلن في رؤوسهن مثل هذا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما

من امرأة تجعل في رأسها شعراً من شعر غيرها إلا كان زوراً»^(١) .

ما يحرم على المرأة فعله:

١ - يحرم على المرأة المسلمة إزالة شعر الحاجبين أو إزالة بعضه

بأي وسيلة من الحلق أو القص، وفعلها هذا هو النمص الذي لعن النبي

ﷺ من فعلته . «لعن ﷺ النامصة والمتمنصة» .

(١) البخاري: (٣٤٨٨، ٥٩٣٨)، ومسلم: (٢١٢٧) .

النامطة: هي التي تزيل شعر حاجبيها أو بعضه للزينة في زعمها .
والمتنمطة: التي يُفعل بها ذلك .

وهذا الفعل من تغيير خلق الله الذي تعهد الشيطان أن يأمر به بني آدم حيث قال كما حكاه الله عنه : ﴿ وَلَا أُمِرُّهُمْ فَلَیُعْیِرَنَّكَ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [النساء : ١١٩] .

قال ابن مسعود: «لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عزَّ وجلَّ» .

قال ابن كثير: «وقد ابتلي بهذه الآفة الخطيرة التي هي كبيرة من كبائر الذنوب كثيرٌ من النساء اليوم حتى أصبح النمص كأنه من الضروريات اليومية»^(١) .

٢ - ويحرم على المرأة عمل الوشم في جسمها ؛ لأن النبي ﷺ لعن الواشمة والمستوشمة .

الواشمة: هي التي تغرز اليد أو الوجه بالإبر ثم تحشو ذلك المكان بالكحل .

والمستوشمة: هي التي يُفعل بها ذلك .

وهذا لا ريب عمل محرم وكبيرة من كبائر الذنوب ، والنبي ﷺ لعن من فعلته أو فُعل بها ، واللعن لا يكون إلا على كبيرة من الذنوب .

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٩/٢) .

٣ - ويحرم على المرأة المسلمة تفليج أسنانها للحُسن . وذلك بأن تبردها بالمبرد حتى تحدث بينها فرجًا يسيرة رغبةً في التحسين ، أما المرأة التي تُعاني من تسوس أو تشويه في أسنانها واحتاجت إلى إصلاحها من أجل إزالة هذا التسوس أو التشويه ، فلا بأس في ذلك ، لأن هذا من باب العلاج ، ويكون على يد طبيبة مختصة .

ما يُباح للمرأة فعله :

الخضاب وهو الحنّاء (نبت معروف) أحمر اللون تخضب به المرأة يديها ورجليها ، قال الإمام النووي : «أما خضاب اليدين والرجلين بالحناء فمستحب للمتزوجة من النساء»^(١) .

صبغ شعر الرأس :

تتجنب المرأة الصبغة السوداء للنهي الوارد عن السواد . فإن كان شعرها شيئًا فإنها تصبغه بغير السواد لعموم نهيه ﷺ عن الصبغ بالسواد . وبوّب النووي للنهي في رياض الصالحين . أما الصبغ إلى لون آخر ، فذهب المانعون له إلى أن السواد بالنسبة للشعر جمال وليس تشويهًا يحتاج إلى تغيير ، ولأن في ذلك تشبُّهاً بالكافرات .

التجمل بالخُلّي :

يباح للمرأة أن تتحلّى من الذهب والفضة بما جرت به العادة ،

(١) النووي، المجموع (١/٣٢٤) .

وهذا بإجماع العلماء . ولكن لا يجوز لها أن تظهر حُلِيِّها للرجال غير المحارم، بل تستره خصوصًا عند الخروج من البيت والتعرض لنظر الرجال إليها لأن ذلك فتنة .

وقد نُهيت المرأة أن تُسمع الرجال صوت حُلِيِّها الذي في رجلها تحت الثياب فكيف بالحلي الظاهر؟! .

بقي أن أقول:

إن الإسلام قد أحاط المرأة بسياجٍ من العفة والحياء، فنهاها عن تمويه خلقتها، وتوصيل شعرها، وكشف صدرها، والتبرج في ثيابها، وإبداء زينتها إلا ما ظهر منها، هذا في الوقت الذي أباح لها أن تتزين لزوجها، وترك لها الحرية الكاملة في أن تبدي زينتها لبعلمها، فتتطيب وتختضب، وتكتحل، وتلبس من الثياب أجملها وأرقها .

آيات ودلالات

يحسن بنا الآن أن نتحدث عن آيات الحجاب التي نزلت فيه بيانا لحكمه وإيضاحًا لوجوب تمسك النساء به .

وقبل الشروع بالآيات والمدلولات يجب أن يُعلم أن:

أحكام الإسلام كلها مبنية على جلب المصالح للعباد، ودرء المفسد عنهم، فما أحل الله تعالى شيئًا لعباده إلا لمصلحتهم، وما حرم عليهم شيئًا إلا لدرء مفسدته عنهم، سواء فهموا الحكمة من ذلك أم لم يفهموها، أدركتها عقولهم أم لم تدركها؛ لأن العليم الخبير،

الحكيم البصير، الذي خلق الإنسان من العدم، وفضله على سائر الأمم، لا يشرع لعباده إلا ما فيه مصلحتهم في عاجلهم وآجلهم تفضلاً منه سبحانه وكرماً، لا موافقة لأهوائهم، أو مقتضى شهواتهم.

لقد نظم لنا الشارع الحكيم أحكام الحجاب، وألزم بها نساء المؤمنين، شأنها في ذلك شأن جميع الأحكام الشرعية التي شرعها الله تعالى لعباده رعاية لمصالحهم، ودرءاً للمفاسد عنهم.

إن أحداً لا يُنكر روعة التشريع الإلهي الذي سما بالأخلاق، وحافظ على الأعراض، وهذب النفوس، وطهر القلوب، حتى غدا رجاله خير رجال عرفهم تاريخ البشرية بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولا غرابة في ذلك؛ لأن الأمة التي تمتلك رجالاً قلوبهم مُترعة بالإيمان، ونفوسهم متجردة لله، وأرواحهم أنقى من الثلج، وأخلاقهم أطهر من ماء السماء، لا بد وأن تكون لها الصدارة بين الأمم، ويسمو أفرادها فيكونون مصابيح الهدى في دياجير الظلم.

وإليكُم جميعاً رجالاً ونساءً آيات الحجاب الخمس أختصر ما أمكن:

آية الحجاب الأولى:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا

يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿١١٧﴾

كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حريصاً على حجاب أزواج رسول الله ﷺ إجلالاً لهن، وأنفةً من إطلاع الرجال الأجانب عليهن، حتى إنه عرض ذلك على النبي ﷺ، والتمس منه حجبهن.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر - رضي الله عنه -: قلت: يا رسول الله، يدخل عليك البرُّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب.

وهذه الحادثة تعتبر إحدى موافقات عمر - رضي الله عنه - وهي مشهورة، فقد اقترح ذلك لما غلب على ظنه ترتب الخير العظيم عليه. ورسول الله ﷺ وإن كان أعلم منه وأغیر، لم يفعل ذلك انتظاراً للوحي، وهو اللائق بكمال شأنه مع ربه عز وجل.

آية الحجاب الثانية:

قال تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

إن الله العليم الحكيم الذي فرض الحجاب بالآية السابقة على أمهات المؤمنين ونساء المسلمين أراد بعد ذلك أن يؤدبهن بأداب إسلامية عالية حملت في طيها دلالات واضحة على تأكيد فرضية الحجاب.

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى :-

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع لهن في ذلك .

ولعلي أخص هذه الآداب التي تؤكد بمجموعها حكم الحجاب فيما يلي :

١ - أن المرأة منهيّة عن تزيين الكلام عند مخاطبة الرجال الأجانب لئلا يطمع بها أصحاب النفوس المريضة .

٢ - قرار المرأة المسلمة في بيتها، فلا تخرج منه إلا لضرورة أو حاجة شرعية .

٣ - نهى المرأة المسلمة عن التبرج الذي يظهر منها بعض ما أمر الله تعالى بستره .

فهذه الآداب خوطبن بها من لا يشبهن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، وهن الفضليات الطاهرات العفيفات لما خوطبن بهذا كان غيرهن مشمولات فيه من باب الأولى .

آية الحجاب الثالثة:

قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠] .

بعد فرض الحجاب على النساء، أعقبه الأمر بغض البصر وعدم إبداء الزينة إلا ما ظهر منها، وهو ما لا يمكن إخفاؤه من الثياب،

حسب تفسير ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه .

وما ورد عن ابن عباس من تفسير ذلك بالوجه والكفين ، فقد كان منه أول الأمر فلما نزلت : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابٍ ﴾ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [الأحزاب : ٥٩] . قال بعد ذلك بستر الوجه .

قال بعض السلف: النظر سهم سم إلى القلب ، ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك . وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥] .

وتارة يكون بحفظه من النظر إليه ، كما جاء في مسند أحمد والسنن : « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » . كل ذلك فيه زكاة للمؤمنين والمؤمنات ، وأطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته .

اية الحجاب الرابعة:

قال تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابٍ ﴾ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [الأحزاب : ٥٩] .

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات ، خاصة أزواجه وبناته لشرفهن بأن يدنين عليهن من جلابيبهن إذا خرجن من بيوتهن في

حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب^(١).

قال ابن عباس: ويبدن عينا واحدة.

قال محمد بن سيرين: سألت عبدة السلماني عن قول الله عز وجل: ﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبَابٍ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى.

والمطلوب تستر يتأتى معه رؤية الطريق حال المشي، والله أعلم.
وعن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها.

آية الحجاب الخاصة:

قال تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

هذه الآية للواتي انقطع حيضهن، ويثنى من الولد، فالمرأة إذا تقدم بها السن وانقطع حيضها ويثنت من الولد، لم يبق لها تشوف إلى الزواج، فهذه وأضرابها ليس عليهن من الحجر في التستر ما على غيرهن من النساء، إذ يجوز لهن أن يضعن الجلباب، شريطة أن لا يتحلين بشيء من الحلبي، ولا يتزيّن بشيء من الزينة، كالسوار في

(١) الجلابيب: جمع جلباب، وهو ما روي عن ابن عباس: الذي يستر من فوق إلى أسفل.

المعصم، والخضاب في الكف، والكحل في العين، والإبقاء على الحجاب وترك وضعهن الثياب خيرٌ وأفضل لهن طلباً للعفاف، وبعداً عن دواعي السوء بترك الحجاب.

فائدة:

قال القرطبي: الزينة على قسمين:

١ - خَلْقِيَّة ٢ - مَكْتَسِبَةٌ

فَالْخَلْقِيَّةُ: وجهها لأنه أصل الزينة، وجمال الخَلْقَةِ.

أما المَكْتَسِبَةُ: فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خَلْقَتِهَا، كالثياب، والحلي، والكحل، والخضاب، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾.

ومن الزينة: ظاهر وباطن، فما ظهر فمباح، وما بطن فلا يحل إبداءه إلا لمن سماهم الله تعالى في آية النور^(١).

حكمة الباري

إن عمق نظرة التشريع الإسلامي وسمو مقاصده ونبل أهدافه لتؤكد أن الحجاب ما هو إلا فضيلة تهدف إلى وقاية المرأة والمحافظة على المجتمع، والحرص على أخلاق الأمة، لئلا تذوب في غيرها من

الأمم، أو تصبح تبعاً لها في ملبسها وأسلوب حياتها، فتفقد خصائصها الإسلامية، وتغدو أمة على هامش الأحداث لا تحظى باحترام ولا تُقابل بتقدير والتمأمل في النصوص الشرعية الواردة في حجاب المرأة المسلمة يستلخص حكماً متوخاةً منه، لعلّي أجملها فيما يلي:

١ - طهارة القلوب من الخواطر الشيطانية، والهواجس النفسانية؛ لأن قلوب بني آدم مهما بلغت من الإيمان والصلاح فلن تصل بأصحابها إلى العصمة من اللوم والخواطر، أو الوقوع في المأثم لاسيما عند وجود أسبابها، إلا أن يتولى الله تعالى الصالح من عباده بعنايته فيحفظه ويكلّؤه ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

إنه لا طهارة ولا زكاة ولا بركة في مجتمع يحيا هذه الحياة ولا يأخذ بوسائل التطهر والنظافة التي جعلها الله سبيل البشرية إلى التطهر من الرجس والتخلص من الجاهلية الأولى، وأخذ بها أول من أخذ أهل بيت النبي ﷺ على طهارته ووضاءته ونظافته.

﴿ذَلِكَمُ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ هذا الحجاب أطهر لقلوب الجميع، فلا يقل أحد غير ما قال الله، لا يقل أحد: إن الاختلاط وإزالة الحجب والترخص في الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب، وأعف للضمائر، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر

والسلوك.. إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين، لا يقل أحد شيئاً من هذا والله يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

يقول هذا عن نساء النبي الطاهرات، أمهات المؤمنين، وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله ﷺ ممن لا تتناول إليهن وإليهم الأعناق.

٢ - صيانة النساء من أذى الفاسقين، والحفاظ عليهن من تعرض المتسكعين ﴿يَذَرْنَكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أدْفَى أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾ [الأحزاب: ٩٥].

من هنا ندرك هيبة الحجاب الذي يصد الفاسقين عن المتحجبات، والوقار الذي يخلعه ذلك الشعار الإسلامي على المؤمنات.

٣ - إصلاح الظاهر بما يتناسب وما قصد إليه الشارع من صلاح الباطن، لئتم الانسجام التام بين حشمة المظهر وعفة المخبر. فتلك التي تبرز محاسنها، وتبدي مفاتنها، امرأة متمردة على ما فطرها الله عليه من الحشمة والوقار المركوزين في النفس بمقتضى الإيمان، والذي يدعو إلى التمسك بالفضائل ونبد الرذائل.

والمرأة المتبرجة السافرة تعطي إيماء واضحة على فساد باطنها، ولا شك أن فلاس الأمة مرهون حين تصبح مريبات الأجيال وصانعات

الرجال يُعلِنُ تبعيتهن وخضوعهن لمؤثرات الاستعمار الفكري فيصبحن دُمى متحركة لصالح العقلية الاستعمارية، فما أشد مُصاب الأمة وأشد إفلاسها حين تنشأ ناشئة لا يعرفون قيمةً لفضيلة، ولا يدركون مدى هبوط الرذيلة، عقلهم غربي، وسلوكهم أجنبي، ولسانهم عربي، وصدق فيهم قول الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى: «لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً، وذراعاً ذراعاً، حتى لو دخلوا جُحر ضبّ تبعتموهم»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»!

٤ - الحجاب مظهرٌ من مظاهر التقى، ودليلٌ على تمكن الحياء ووفور الأدب، المرأة التي تتخرج عندما تتكلم مع غير محارمها لحاجة أو ضرورة، امرأة نقية المعدن، طيبة القلب، نبيلة الشعور. فحجابها يزيد ضميرها حياةً، وعنصرها زكاةً، وباطنها نقاءً، فتمنع عما لا يجوز، وتناهى بنفسها عما لا ينبغي، ولا عجب أن يصونها الحجاب، لأنه يدعو إلى الحياء، ويبعدها عن مواطن الريبة، ويُقربها من فعال الخير، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «الحياء خير كله».

ولما كان الحياء خيراً كله فإن عاقبته إلى خير، حيث يحجز صاحبه عن الرذائل، ويسوقه إلى الفضائل، ولهذا قال النبي ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير».

إن المرأة التي يدفعها حياؤها إلى ستر مفاتها، وعدم إبداء

زيتها، والاعتزاز بحجابها، والبُعد عما يسخط ربها، هي امرأة ربا الإيمان في قلبها، وعظم اليقين في نفسها، وتسربت الخير في عملها، إنّ حياءً يدفع لهذا كله لا شك أنه من الإيمان: «الحياء من الإيمان»، وفي رواية: «الحياء شعبة من الإيمان».

٥ - الحجاب يتناسب مع طبيعة المرأة التي فطرها الله تعالى على الإيمان والحياء، ذلك لأن حالها مبني على الستر، فحين تعيش المرأة في نطاق هذا الأمر، وتحيا ضمن تلك الطبيعة فتشعر براحة النفس وهدوء البال وكفى بذلك.

إن خروج المرأة عن تلك الطبيعة يُعتبر عدواناً على الفطرة، وتمرداً على أوامر الله، ويجرها إلى التشبه بالرجال.

إن بقاء المرأة في إطار أنوثتها مما يحرص عليه الدين الحنيف، فيكون الحجاب في حقها تكريماً لها، وصيانة من الخروج عن طبيعتها، لقد أوصد الإسلام كل باب يعتبر ذريعة لتحلل المرأة، وأغلق كل ما يؤدي إلى فسادها وإغراء الرجال بها.

«لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال».

كل هذا لإعادة التوازن إلى ذلك الإنسان الشارد وردّه إلى جادة الهدى بإعادته إلى فطرته وتذكيره بمهمته في هذه الحياة.

الخاتمة

وختامًا: أتوجه إلى العلي القدير بالحمد له والشكر على إعانته لي وتوفيقه للوصول إلى خاتمة هذا البحث المتواضع، والذي أسأله أن ينفع به، وأن يمنحنا العفو والغفران عن الزلل والخطأ، وأن يورثنا ووالدينا والمسلمين جنات الفردوس، وأن لا يحرمنا أجر الغرس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد الإله بن سليمان الطيار

ص.ب: ٢٦٨٠١

الرياض: ١١٤٦٩

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الكتاب
٥	مدخل لموضوع الرسالة
٦	مكانة المرأة في الجاهلية
٧	الجوانب الإيجابية في حياة المرأة في الجاهلية
٨	الامتيازات التي حظيت بها المرأة العربية في جاهليتها
٨	المرأة والزواج
٩	المرأة والتجارة
١٠	المرأة والثقافة
١٢	العلاقات الأسرية (الأم، الأخت، الزوجة، البنت)
٢١	الجوانب السلبية في حياة المرأة في الجاهلية
٢٢	المرأة عند اليهود والنصارى والعرب في الجاهلية
٢٥	وأد البنت
٢٩	مكانة المرأة في الإسلام - حقوق وواجبات -
٣١	حقها في العلم والتعلم
٣٤	حقها في الميراث
٣٦	الزوجة وحقوقها في الإسلام

٣٧	حق اختيار الزوج
٣٧	حقها في الصداق
٣٧	حقها في النفقة والسكن
٣٨	حقها في حسن العشرة
٣٨	حقها في التصرف المالي
٤٠	الواجبات على المرأة في الإسلام
٤٠	الإيمان ومقتضياته
٤١	طاعة الزوج وتحريم معصيته
٤٣	تربية الأبناء
٤٦	دور الأم في التربية الإسلامية
٥٢	التأسيس الاجتماعي للأسرة
٧٤	بين التوجيه والتشريع
٨٠	واجبات وتوجيهات
٩٦	قضايا ومستجدات
١٠٩	أحكام وأحوال وآداب
١١٥	آيات ودلالات
١٢١	حكمة الباري
١٢٦	الخاتمة
١٢٧	الفهرس

